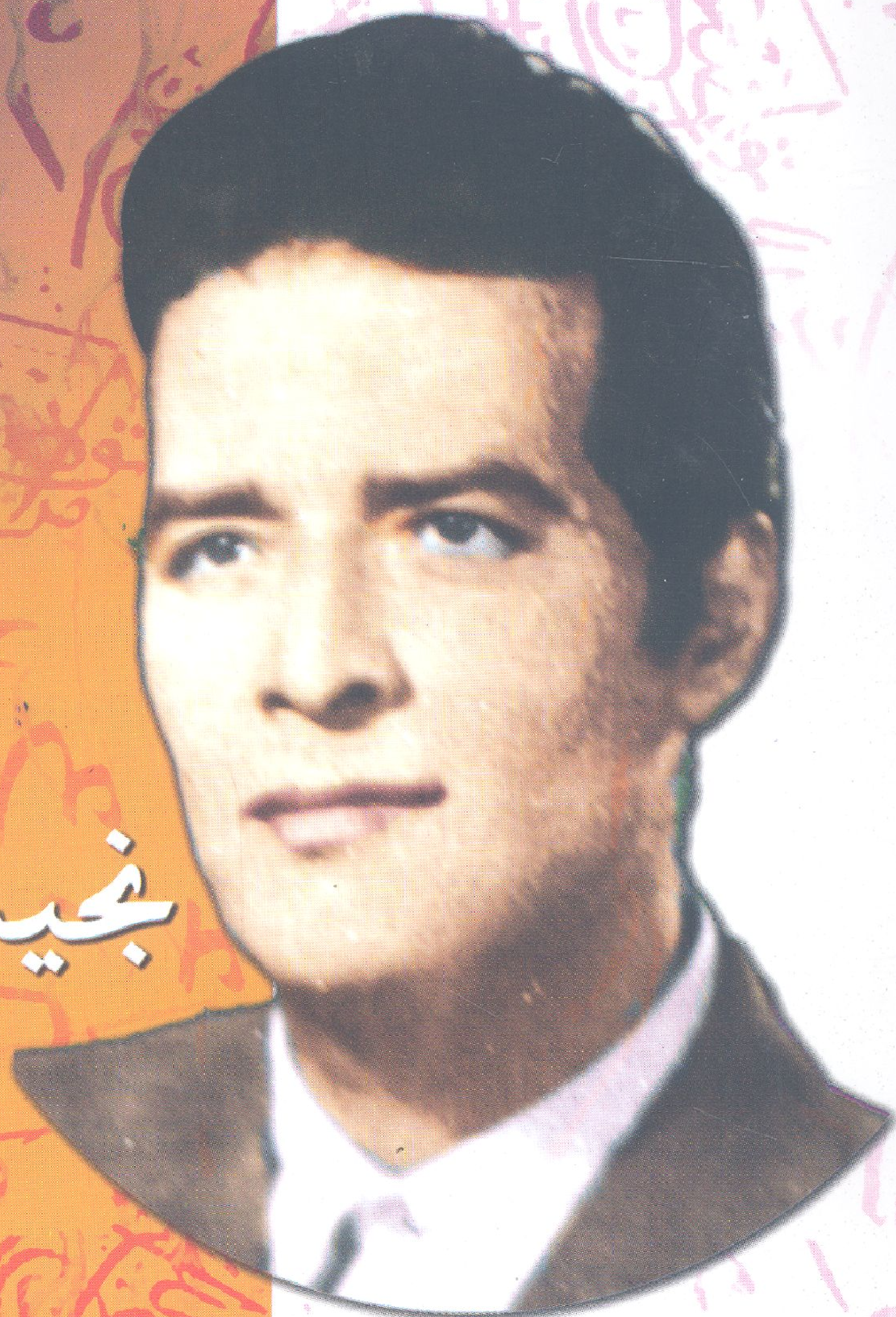
المجلس الأعلى للثقافة



نجيب سرور

تحت عباءة أبي العلاء

تقديم و إعداد

حازم خيرى

إهـــــداء٢٠٠٨
دار الكتب و الوثائق القومية
القاهرة

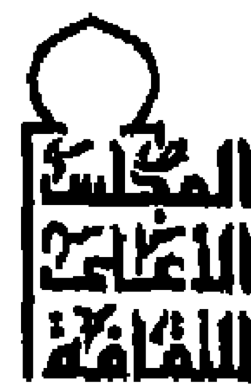
المجلس الأعلى للثقافة

تحت عباءة أَبِى الْعَلَاءِ

تأليف: نَجِيب سُرُور

تقديم وإعداد

حازم خيرى



٢٠٠٨

المجلس الأعلى للثقافة

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامَّة لدار الكتب والوثائق القوميَّة
إدارة الشئون الفنِّـيَّة

سرور، نجيب
تحت عباءة أبي العلاء. تأليف : نجيب سرور ، تقديم وإعداد: حازم خيرى
القاهرة، المجلس الأعلى للثقافة، ط١، ٢٠٠٨
١٨٨ ص؛ ٢٤ سم.
١ — الأدب العربي — تاريخ ونقد
٢ — المعرى ، أحمد بن عبد الله بن سليمان ، ٩٧٣-١٠٥٧
(أ) خيرى ، حازم (معد)
(ب) العنوان ٨١٠,٩

رقم الإيداع ٢٠٠٨/١١٨٤٢
الترقيم الدولى 977-437-766-4
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

شارع الجبلاية بالأوبرا- الجزيرة- القاهرة ت ٢٧٣٥٢٣٩٦ فاكس ٢٧٣٥٨٠٨٤

El Gabalaya St., Opera House, El Gezira, Cairo.

Tel.: ٢٧٣٥٢٣٩٦ Fax: ٢٧٣٥٨٠٨٤.

نجيب: أيها الثائر، لِمَ لُذتَ بدارك؟

أَبُو العَلاءِ: أولو الفضل في أوطانهم غرباءُ!

نجيب: لِمَ لَمْ ترحل؟

أَبُو العَلاءِ: إلى أين الرحيل؟

أَيُّ فرقٍ بين أن أُنفى بعصري...

لو ترومُ الصدق أو أُنفى بداري...

أو أراني ضائعًا في غيرِ داري؟!

نجيب سرور

"لزوم ما يلزم"

المحتويات

المقدمة

"أُولُو الْفَضْلِ فِى أَوْطَانِهِمْ غُرَبَاءُ"... لكم تصدق تلك العبارة العلائيّة الرائعة أكثر مَا تصدق على هَذَا الكتاب القيّم وصاحبه الرَّاحِل النبيل نَجِيب سُرُور. وقصة ذَلِكَ أن الكتاب الماثل ظَلّ حبيس الأدراج لسنوات طوال، تربو على الثلاثين عامًا تقريبًا، عانت خلالها أرملة الكاتب الروسيّة السيدة ساشا كورساكوفا الأَمَرَّين فِي سبيل إخراجه إِلى النور ككتاب مكتمل، بعد أن نُشرت بعض أجزائه متفرقة فِي مجلاّت مختلفة، وذَلِكَ قبل أن يرحل نَجِيب سُرُور عن دنيانا... أقول إِن الأرملة الوفيّة أَبَت إلاّ أن يُنشر الكتاب مكتملاً، تنفيذًا لوصيّة زوجها الرَّاحِل من ناحية، وإِدراكًا مِنْهَا لأَهَمِّيَّة الكتاب وأَهَمِّيَّة موضوعه لنَجِيب سُرُور من ناحية أُخْرَى. فلطالما كرّر الرجل على مسامعها إِعجابه الفائق بثلاث شخصيات رآها تجسيدًا حلوًا لعالمه المنشود، أوّلها المسيح عليه السلام، وثانيها دون كيخوته الشهير بطل رواية ثربانتس الشهيرة الَّتِي تحمل الاسم نفسه، وثالثها أَبُو الْعَلاَءِ الْمَعَرِّيّ شاعر الفَلاَسِفَة وفَيْلَسُوف الشعراء، ولنا معه حديث يطول. المهمُّ أَنَّه إِلى هَذِهِ الدرجة أَحَبّ نَجِيب سُرُور أَبَا الْعَلاَءِ، حَتَّى إِنه أنزله تلك المنزلة الْكَرِيمة فِي عقله وقلبه.

بيد أنه قَد يكون ملائمًا قبلَ التطرُّق إِلى الحديث المسهب عن الكاتب الرَّاحِل وموضوع كتابه المهمّ، إِطْلاَع القارئ الْكَرِيم على طبيعة علاقة كاتب هَذِهِ السطور بنَجِيب سُرُور، وكَيْفِيّة وصول مَخْطُوطة هَذَا الكتاب القيِّم إِلى يده.

كنت قَد فرغت لتوِّى من "الإِنْسَان هُوَ الحلّ"... الصادر عن دار "سطور" لِلنَّشْر، وهو كتاب أودعته رؤيتى للنهج الإِنْسَانى أو الأَنْسَنِيَّة Humanism كما

يحلو للبعض -وأنا منهم- أن يسميها. ورحت أبحث عن شخصية أطبّق عليها ذَلِكَ النموذج الأَنْسَنِيّ التفسيريّ، إيمانًا منِّي بعلميته وواقعيته، فقادتني خُطَايَ إِلى نَجِيب سُرُور. فرحت أجمع المعلومات والوثائق عن الرجل، علاوةً على إقبالي على اقتنـاء وحصر أعماله المنشورة. والحقّ أنّي وجدت فِي أرملته السيدة ساشا كورساكوفا خير مُعين، فقد فاجأتني فِي لقائي الأول بِهَا بمقهى ريش الشهير بأن دفعت إِلَيّ بحزمة من الأوراق، قالت لِي إِنها مَخْطُوطة دراسة قيّمة غير منشورة، كتبها زوجها الرَّاحِل عن أَبِي الْعَلاَءِ الْمَعَرِّيّ، وطلبت منى إِعدادها للنَّشر. وبقدر مَا أثلج الطلب المفاجئ صدري، فقد أخافني لوعورة الطريق وثقل العبء.

وأراني مُجبَرًا، قبل المضيّ قُدُمًا فِي الحديث عن الدِّرَاسَة وصاحبها أن أستطرد بعض الشَّيْء للتعريف بالأَنْسَنِيَّة فِي عجالة، عسى أن يدرك القارئ الْكَرِيم دوافع إقبال كاتب هَذِهِ السطور على إِعداد مَخْطُوطة هَذِهِ الدِّرَاسَة الْمُهِمَّة للنَّشْر وعسى أن يُطَمْئِن القارئ نفسه إِلى أمانة الجهد المبذول لخروج الْمَخْطُوطة إِلى النور على النَّحْو الَّذِي أراده الرَّاحِل الْكَرِيم نَجِيب سُرُور، فالنصّ الأصليّ لم يُمَسّ من قريب أو بعيد، ولسوف أتحدث عن ذَلِكَ لاحقًا بشيء من التَّفْصِيل.

الأَنْسَنِيَّة نَهْج يحترم الإِنْسَان ويُنْزِله المنزلة اللائقة بِهِ، فهي تقول بالإِنْسَان كأعلى قيمة فِي الوجود، وهدفها هُوَ التّمحيص النَّقْديّ للأشياء بِمَا هِيَ نتاج للعمل البشريّ وللطاقات البَشَرِيَّة، تحسُّبًا لسوء الْقِرَاءَة وسوء التَّأْوِيل البشريَّيْن للماضي الجمعيّ كما للحاضر الجمعيّ. ففِي رحاب الأَنْسَنِيَّة لاَ يوجد سوء تَأْوِيلٍ لاَ يمكن مراجعته وتحسينه وقلبه رأسًا على عقِب، ولا يوجد كَذَلِكَ تاريخ لاَ يمكن استعادته، إِلى حدٍّ مَا، وفهمه بشغف بكلِّ مَا فِيهِ من عذابات وإنجازات. وبعبارة أُخْرَى، تنسف الأَنْسَنِيَّة جذريًّا الأطروحة القائلة بأن تبجيل مَا هُوَ تراثيٌّ أو اتِّباعيٌّ

يتعارض حتمًا مع التجديد المستمرّ للمُعْطَيَات المعاصرة. وإذا اتخذنا التَّارِيخ كمثال، نجد أن الأَنْسَنِيِّينَ يرونه مسارًا غير محسوم، قيد التكوين، لاَ يزال مفتوحًــا علــى حضور الناشئ والمتمرد وغير المستكشَف وغير المقدَّر حقَّ قدره وما يطرحه مــن تحدِّيات. كما أهم يرون أن الإِنْسَان هُوَ صانع التَّارِيخ، ومن ثم فهو قــادر علــى اكْتِنَاهِهِ عَقْلِيًّا، وفق المبدأ القائل بأننا كبشر ندرك فقط مَــا نَحْــنُ صــانعوه، أو بالأحرى نراه من وجهة نظر الإِنْسَان الصانع، فأنْ تعرِف شيئًا مَا يعنِي أن تعــرف الكَيْفِيّة الَّتِي بِهَا صُنع ذَلِكَ الشَّيْء.

وطبقا للأَنْسَنِيِّ الفذِّ إِدوارد سعيد، ليست الأَنْسَنِيَّة طريقة لتدعيم وتأكيد مَا قَد عرفناه وأحسسناه دومًا، وَإِنَّمَا هِيَ وسيلة تساؤل وإقلاق وإعادة صياغة للكثير ممَّا يقدَّم لنا اليوم على أنه يقينات مسلَّمة، معلَّبة، مُغلَقة على النقــاش، ومــشفَّرة على نحو غير نَقْدِيّ، بِمَا فيها تلك الموجودة فى ما اصطُلح على كونه آراء وأعمال خالدة يجرى تغليفها برقائق المحرَّمات الثقافية. فثمة صعوبة فِي القول بأن عالَمَنــا الفكريّ والثقافِيّ كناية عن مجموعة بسيطة وبديهيَّة من خطابات الخبراء، فالأرجح أنه تنافُر مضطرب من المدوَّنات غير المحسومة. ولكل حضارة أن تلبِّي روحُها هَذَا النهج الأَنْسَنِيّ المنشود. ولِهَذَا علينا أن نلتمسه فِي الحضارات المختلفة، فخصائصه الْعَامَّة تكاد تكون واحدةً بين جميع الحضارات:

"١" معيار التقويم هُوَ الإِنْسَان.

"٢" الإِشادة بالعقل وَرَدّ التطوُّر إِلى ثورته الدائمة.

"٣" تثمين الطبيعة والتعاطى المتحضِّر معها.

"٤" القول بأن التقدم إِنَّمَا يتمُّ بالإِنْسَان نفسه.

"٥" تأكيد النزعة الْحِسـِّـيَّة الجَمَالِيَّة.

والسؤال الَّذِي لاَ بد أنه جائل بصدور الكثيرين، خُصُوصًا مِمَّن لم يعاصروا نَجيب سُرُور، أو حَتَّى عاصروه ولم يسمعوا بحكايته المحزنة وهم كُثْرٌ: مَن نَجيب سُرُور؟ وما حكايته المحزنة والفاجعة؟ وما سِرّ هَذَا الصمت الإعلاميّ الرهيب والتجاهُل التامّ لمكانة الرجل فِي الفكر الْعَرَبِيّ فِي وقت لاَ يتوقف فِيه ضجيج احتفاء الإعلام الْعَرَبِيّ بالأقزام من كل حَدَب وصوب؟ والجواب: نَجيب سُرُور هُوَ ذَلِكَ الأَنْسَنِيّ الْفَذُّ الَّذِي لم يقنع على الأرجح بنشدان الأَنْسَنِيَّة، وأَبَى إلاّ أن يبلغها، فاحترق ببلوغه إياها! وترك لنا ميراثًا يصعب على المسافر فِي أراضيه الْبَتُّ فِيه بِرَأْي، فهو خليط من الكبرياء الشهيَّة والكرامة الجريحة، لاَ يملك المرء إزاءه إلاّ أن تتنازعه مشاعر الإعجاب والشفقة تجاه صاحبه. الإعجاب بإيمانه الجميل بنفسه، والشفقة لما تَكَبَّده من أهوال وعذابات.

وُلد نَجيب سُرُور عام ١٩٣٢ فِي قرية إخطاب بمحافظة الدقهليَّة، وهِي إحدى أهم قلاع الإقطاع المصرى فِي ذَلِكَ الزمن. وقد ظلت إخطاب بفلاّحيها ومآسيها وغيطانها، متغلغلة فِي نسيج حياة نَجيب سُرُور وفِي الكثير من كتاباته ومسرحيَّاته. مِنْهَا استخرج المادّة الْبَشَرِيَّة والحياتيّة الأولى لأدبه، وفيها تَلَقّى معارفه الأولى، إذ تَشَرَّب بالموروث الشعبيّ من عادات وحكايات وأمثال واعتقادات وأساطير. وفيها قرأ مَا ألقت به الأيام بين يديه، خصوصًا وأن والده محمد سُرُور امتلك مجموعة من الكتب يُعتدُّ بِهَا، وكانت لَهُ محاولات شعريَّة وقصصيَّة. وكثيرًا مَا حثّ الأب ابنه نجيب على الْقِرَاءَة والكتابة، على خلاف الحال مع ثروت الأخ الأكبر لنجيب الَّذِي اختصَّته الأسرة بأعمال "الغيط"... والَّذِي أكمل تعليمه لاحقًا، على أمل أن يحقّق الابن نَجيب سُرُور حلم الأب محمد سُرُور بأن يصبح كاتبًا وأديبًا يُشار إليه بالبَنان، فلم تكُن المناقشات الأَدَبِيَّة بين الابن نَجيب سُرُور

ووالده لتنقطع يومًا فِى تلك المَرْحَلَة. وبالفعل التحق نجيب بالمدرسة الابتدائية وبدأ رحلته التعليمية، وتفوَّق وشُغف بالْقِرَاءَة، وتمتَّع بحس نَقْدِىّ راقٍ، حتَّى إن الكتاب لم يكُن ليفارق يده. ومرَّت الأيام ونجح نجيب فِى الابتدائية، ثم التحق بالمدرسة الثانويَّة، فلَمْ تَكُن على أيامه المَرْحَلَة الاعدادية. وبدأ الصبىُّ نجيب ينضج، كان لاَ يترك كُتُب الشعر من يديه وبخاصَّة كتب أَبِى الْعَلاَءِ الْمَعَرِّىّ -موضوع هَذَا الكتاب- على صعوبتها، خصوصًا لِمَن هم فِى مثل سِنِّه آنذاك.

وطبقًا لرواية نَجيب سُرُور "فارس آخر زمن!" -وهى رواية غير منشورة تجسِّد السيرة الذاتية لِنَجيب سُرُور، حال رحيلُه دون اكتمالها- كان الوالد محمد سُرُور بحكم وظيفته دائم التنقُّل من قرية إِلى قرية ومن مدينة إِلى مدينة بين الوجهين البحرىّ والقبلىّ، فقد ترك التدريس الإلزامىّ والتحق بمدرسة الصيارفة، وأصبح يملك ثلاثة عشر فدانًا. وفِى مدرسة مغاغة الثانوية اشترك نجيب لأول مرة فِى تمثيل مَسْرَحِيَّة "أصدقاء السوء". وفِى كلية الحقوق الَّتِى اختارها لَهُ والده انضمّ نجيب إِلَى فريق التمثيل، واشترك مع زميله كرم مطاوع فِى تمثيل مَسْرَحِيَّة "نهر الجنون" لتوفيق الحكيم من إخراج سعد أردش الطّالب آنذاك.

وبدأت اهتمامات نجيب تزداد بالتمثيل، فالتحق مع كرم مطاوع، وفِى عام واحد، بالمعهد العالى للفنون المَسْرَحِيَّة مع كلية الحقوق، بيد أن نجيب لم يلبث أن ترك دراسة الحقوق فِى السنة النهائية ليتفرغ للمعهد. ولَكَمْ أغضب ذَلِكَ الأب، الَّذِى لم يلبث أن غفر لابنه فعلته تلك بعد أن عرف أن هناك نيَّة لإيفاد بعثات إِلى الخارج، وإِلى روسيا بالذات، فقد كانت طرق البعثات إِلى لندن وباريس مغلَقة عقب حرب ١٩٥٦. بعثةٌ إِلى الخارج ودكتوراه قَد تحمى ابنه من الضياع فِى عالَم الفن والأدب بين أذرع الأخطبوط الَّذِى كان يوشك هُوَ -الوالد نفسه- أن يضيع

بينها فِي مطلع شبابه حين كان يكتب الشعر والمسرحيات! ويحمل مجرَّد شهادة مدرسة المعلمين. وبالفعل فاز نجيب بالبعثة، وكان قَد أقسم بينه وبين نفسه على أن لاَ يعود إِلى مصر، فيما لو اتيحت لَهُ فرصة الخروج مِنْهَا، لِمَا سادها آنذاك من قمع شرس لأصحاب الرأى وسجناء الضمير. وراح الأب محمد سُرُور يشترى لولده لوازمه، وأوصاه فِي قصيدة الوداع الَّتِى ألقاها بين المودّعين أن يعيش دائمًا بعقله وقلبه ووجدانه فِي وطنه مصر مهما باعدت بينهما المسافات والسنوات!

وفِي موسكو ضرب نجيب على نفسه عزلة، لاقتناعه -كما قال لصديقه أبو بكر يوسف فيما بعد- بأن المبعوثين المصريين آنذاك (عام ١٩٥٩) كانوا منتقَيْن بعناية من أجهزة المباحث بحيث لاَ يفلت منهم تقدُّميٌّ واحد. أما هُوَ فأفلت بأعجوبة، لأنه وصل إِلى موسكو فِي قمّة الحملة المعادية للشيوعيّة فِي الجمهوريّة العَرَبِيَّة المتحدة، وهي حملة صاحبت إِقامة الوحدة بين مصر وسوريا. ولعبت دورًا مأساويًا فِي حياة نَجِيب سُرُور فِي موسكو. فما إن أفصح نَجِيب سُرُور عن انتمائه إلى الفكر الماركسي وأشاع أنه كان عضوًا بأحد التنظيمات الشيوعية فِي مصر (جماعة حدتو) حَتَّى وجد نفسه محاصَرًا بشكوك ورِيَب قويَّة من قادة التنظيمات الشيوعيّة العَرَبِيَّة فِي موسكو، وبخاصة تنظيم الحزب الشيوعي السورى الَّذِى كان يقوده فِي موسكو أحد أعضاء اللجنة المركزية للحزب اللاجئين إِلَى الاتحاد السوفييتي. وكان مبعث الريبة هُوَ: كيف يتمكن شخص يقول إنه شيوعى من المجيء إِلَى موسكو فِي هَذِهِ الفترة بالذات، ويفلت من أجهزة المباحث المصرية الَّتِى كانت فِي أوج عنفوانها، بل وفوق ذَلِكَ يأتى طالبًا فِي بعثة حكومية؟!

وفِي محاولة منه لتبديد هَذِهِ الشكوك جنح نجيب إِلَى التطرُّف، فلجأ إِلَى تشكيل مجموعة من "الديمقراطيين المصريين" لإِصدار البيانات واتخاذ المواقف المُعَادِيَة

للنظام الحاكم، واستغلّ ذات مرة فرصة انعقاد أحد المؤتمرات التضامنيّة مع الشعب الكوبيّ فِي جامعة موسكو فقفز إِلى المنصّة واستولى عليها، وأطلق بيانًا ناريًّا ضدّ "النظام القمعى الديكتاتورى" فِي مصر وسوريا. وبينما هدرت القاعة المملوءة عربًا وأجانبَ بالتصفيق ظهر الحرج والضيق على أوجه المسئولين فِي الجامعة، الذين وضعهم نجيب فِي ورطة شديدة. ونجحوا أخيرًا فِي تنحيته عن المنصّة، ولكن بعد فوات الأوان! ففِي اليوم التالى احتجّت السفارة المصرية على جامعة موسكو، وفُصل نجيب من البعثة (هُوَ وماهر عسل الّذِى ترجم لَهُ البيان وألقاه بالروسية)، وأُلغى جوازا سفرهما، وطالبت السلطات المصرية المسئولين السوفييت بترحيل نَجيب سُرُور وماهر عسل إِلى القاهرة فورًا!

بِهَذِهِ الحركة نجح نجيب فِي كسب ثقة الشيوعيين العرب فِي موسكو فدافعوا عن بقائه فيها، وتكللت مساعيهم لدى السلطات السوفييتية بالنجاح فظل نجيب فِي موسكو، ولكنه نُقل إِلى مدينة جامعية أُخرَى حَتَّى لاَ يحتكّ بالمبعوثين المصريين الهائجين ضدّه. وبمرور الوقت أدرك نجيب أنه ارتكب حماقة، ولم يعُد يدرى مَاذَا يفعل بِهَذِهِ المجموعة الصغيرة الّتِى التصقت به. واعترف لأعضائها صراحةً بأنه لاَ يفقه شيئًا فِي السياسة، وأنه لاَ يريد أن يُلْحِقَ بهم الضرر، ولِذَلِكَ قرّر تركهم والانصراف إِلى الدِّرَاسَة، ونصحهم أن يحذوا حذوه.

وبالفعل، وفِي الوقت الّذِى بدا فيه وكأن أمور نَجيب سُرُور تسير إِلى الأفضل، بعد تبدُّد سُحُب الشكوك فِيهِ وانتصاره فِي المواجهة مع السلطات الحكوميّة المصرية آنذاك، سواء برفضه أمرًا مِنْهَا بالعودة إِلى مصر بعد ثلاثة أشهر من وصوله إِلى موسكو، أو بصموده أمام الضغوط الّتِى مُورِسَت ضدّه بعد فصله من البعثة، أخذ نجيب يبتعد عن مجموعته الصغيرة ويغرق فِي الشَّراب والديون. وفِي هَذِهِ الفترة بدأ يكتب قصيدة "العودة" الّتِى أورد مقاطع مِنْهَا فِي ديوانه "لزوم

مَا يلزم"... وهى قصيدة مغرقة فِى اليأس والضياع والحنين إِلى الوطن:

"يَا مِصْرُ يَا وَطَنِى الْحَبِيبْ!

يَا عُشَّ عُصْفُورٍ رَمَتْهُ الرِّيحُ فِى عُشٍّ

غَرِيبْ...

يَا مِرْفَئِى، آت أَنَا آت...

وَلَوْ فِى جِسْمِيَ الْمَهْزُولِ آلاَفُ

الْجِرَاحْ...

وَكَمَا ذَهَبْتُ مَعَ الرِّيَاحْ...

يَوْمًا أَعُودُ مَعَ الرِّيَاحْ...

وَمَتَى تَهُبُّ الرِّيحُ، أَوْ هَبَّتْ...

فَهَلْ تَأْتِى بِمَا يَهْوَى الشِّرَاعْ؟

هَا أَنْتَ تُصْبِحُ فِى الضَّيَاعْ...

فِى الْيَأْسِ، شَاةً عَاجِزَةْ...

مَاذَا لَهَا، إِنْ سُلَّتِ السِّكِّينُ، غَيْرُ

الْمُعْجِزَةْ؟!"

وهجر نَجيب سُرُور المسرح الَّذى كان يدرس فِيه تحت إِشراف المخرج الكبير نيكولاى أخلوبوكوف متعللاً بأن أخلوبوكوف مُخْرِجٌ شكلىٌّ يهوى المؤثرات الصوتية والضوئية ولا يغوص فِى أعماق النصِّ المسرحىِّ. وبالطبع لَمْ يَكُن هَذَا هُوَ السبب الحقيقى الَّذى نفّر نجيب من دراسة المسرح، ودفعه إلى التفكير الجدِّىِّ فِى إعداد أطروحته للدكتوراه عن ثلاثية الروائى المصرى نجيب محفوظ، وإِنَّمَا كانت الأزمة الحادّة الَّتِى أخذت تتفاعل فِى أعماقه، والتى لم يجد سُرُور

سوى الإغراق فِي الشراب كوسيلة للهروب منْهَا. وذات مرة سأله صديقه أبو بكر يوسف مستنكرا -وكان يجالسه فِي أحد المطاعم-: لِمَاذَا تفرط فِي الشراب إِلى هَذَا الحد؟

فأجاب: لكى أنسى!

قال لَهُ: وما الَّذِى تريد أن تنساه؟

فأجاب بروح دعابته الحاضرة دائمًا: وهل ترانى أذكر؟!

فِي أواخر فترة وجوده فِي موسكو، نحو عام ١٩٦٣ بدأ نجيب يُكثر من الحديث عن النفوذ الصهيونى فِي الاتحاد السوفييتى، واستنكر مَن حولَه منه ذَلِكَ بشدّة، ولم يصدقوا أن الاتحاد السوفييتى يمكن أن يكون خاضعًا للنفوذ الصهيونى، واعتبر زملاء نجيب أنه يغالى كعادته، وبخاصة فِي ظلّ تفاقم أزمته الشخصية.

ثم وقعت الحادثة الَّتِي وضعت نهاية لبقاء نَجِيب سُرُور فِي موسكو... كان نجيب يسامر أحد الأصدقاء اليمنيين فحدثت مشاحنة بينه وبين أحد الرواد الَّذِي ظنّهما يُهِينَانه. وتدخّل رجال الشرطة وحاولوا اقتياده بِلَيٍّ ذراعيه. وكان نجيب قوى البِنْيَة فتخلص منهم بقوّة اعتبروها مقاومة، فاجتمعوا عليه واقتادوه إِلى مبنى الشرطة حيث أوسعوه ضربًا. وقال نجيب لصديقه أبِى بكر يوسف وهو يروى هَذِهِ الواقعة: لقد بكيت آنذاك، ليس من الألم، بل على انهيار المثال -يقصد المثال الشيوعى بالطبع- وأحسست أنه لاَ فرق بين شرطة سوفييتية ومباحث مصرية، فكلها أجهزة قَمع، وَإِنَّمَا نحن الذين صدّقنا الأوهام عن "الإِنْسَانية الاشتراكية".

وسافر نجيب إِلى بودابست بدعوة من أحد اللاجئين السياسيين المصريين هناك، حيث عمل فِي القسم الْعَرَبِيّ بِإذاعة بودابست، وواجه هناك الغيرة والحقد من جانب الشيوعيين السوريين الذين كانوا فِي معظمهم غير مؤهَّلين لمجاراة نجيب

فِي قدراته وإبداعاته، فناصبوه العداء. فعاودت نَجِيب سُرُور أزمتُه الّتي لم يفلح تغيير المكان فِي إطفاء جذوتها، وكان يتصل بزوجته طالبة الآداب الروسية ساشا كورساكوفا وصديقه أبي بكر يوسف من هناك، مؤكّدًا لهما على معاداة الشيوعيين السوريين لَهُ وسعيهم لإبعاده والتخلُّص منه، علاوة على تأكيده على استفحال النفوذ الصهيونى لاَ فِي القسم الْعَرَبِيّ فِي إِذاعة بودابست فحسب بل وفِي معظم أوجه الحياة السياسية والثقافية والاقتصادية فِي المجر.

وذات مرة اتصل نجيب بصديقه أبي بكر يوسف من بودابست، وكان ذَلِكَ فِي ربيع عام ١٩٦٤، وطلب من عاملة البدالة أن تكون المكالمة على حسابه، فوافق صديقه مستغربًا، وعندما تمّ الاتصال أخبره نجيب أنه طلب ذَلِكَ لأنه لاَ يملك ثمن المكالمة، وقال بصوت متهدج فجعَت نبرته المتهالكة أبا بكر يوسف إنه جائع ولم يأكل منذ أيام، وسيذهب اليوم التالى إِلى السفارة المصرية ليسلم نفسه (كما قال)، لأنه لم يعد يحتمل الزيف المحيط بِهِ، ويريد أن يعود إِلى مصر ليموت فيها، مثل سنوحى!

رجاه صديقه أن يهدأ وأن لاَ يتسرع على أمل تدبير الأمر، ولكن نجيب أصرّ قائلاً إِنه لم يعُد ثمة معنى للاستمرار فِي لعبة الخداع، فالعالم كله لصوص ومخدوعون، وما المذاهب إِلاّ أساليب يلجأ إِليها اللصوص لتغطية سرقاتهم. وبِهَذِهِ المناسبة فقد كتب نَجِيب سُرُور فِي بودابست قصيدته الشهيرة "المسيح واللصوص" حيث "اتّهم" فيها المسيح بأنه السبب فِي ظهور اللصوص الذين أخذوا يتاجرون باسمه، وباسمه يحكمون!

وحين يحاول "مسيح نَجِيب سُرُور" أن يردّ على الشاعر بأنه سيعود ليصحّح الأوضاع يجادله الشاعر:

- هل تصدّق مَا تقولُ؟
- الآبُ قال بأنني حتمًا أعود
مَلِكًا على أرض البشرْ
لتسود فِي الناس المسرّةُ والسلام!
- لو عدتَ، مَن ذَا يعرفُ؟
- سأقول: جئت أنا المسيح!
- سيطالبونك بالدليل
- ستكون فِي جيبي البطاقة والجواز
- هَذَا قليلْ...
مَا أسهل التزوير للأوراق فِي عصر اللصوص
ولديهم "الخبراء" سوف يؤكّدون
إن الهُوِيَّة زائفة!
- لكن عليها الختم، ختم الآبِ!!
- يا بئسَ الدليل!
سيؤكّد الخبراء أن الختم برهانٌ على زيف الهُوِيَّة!
- سأريهُمُ هذى الثقوب...
فِي جبهتي -أُنْظُرْ- وفِي الكفّين...
فِي الرِّجْلَيْنِ...
جئت أنا المسيح!

سيقول لُوقَا: قال مرقص
إن مَتَّى قال، يوحنَّا يقول:
"فِي البدء كان الأمر أصلب
والآن صار الصلب أوجب!"
حتما ستُصلب من جديد
هم فِي انتظارك - كل أتباعك، قطعان
اللصوص -
هم فِي انتظارك بالصليب...
مَاذَا؟ أتبكي؟ كل شيء مضحك حَتَّى
الدموع!
العصر يضحك من دموعك، من
دموعي، عصرنا
عصر اللصوص...
بل أنت، حَتَّى أنت لصٌّ!
لو لَمْ تَكُن مَا كان فِي الأرض
اللصوص!
حَتَّى أنا لِصٌّ، ألم أُخدع طويلاً
باللصوص؟!

فِي هَذِهِ الأثناء كتب الناقد المصرى رجاء النقاش فِي جريدة الجمهورية مقالا بعنوان "مأساة فنان مصرى فِي بودابست"... تحدَّث فِيهِ عن معاناة نجيب وتعرُّضه لمخاطر جَمَّة وَشَبَّهَهُ بأنه "قِطٌّ فوق سطح من الصفيح الساخن" على حدّ

تعبير تنسى وليامز، وهَذَا السطح -طبقا للنقاش- هُوَ القلق الَّذِى لاَ يـــرحم، ولا يتيح لأصحابه عمرًا هادئًا، أو حياة بلا تقلُّبات عنيفة مرة! وبدا واضـــحًا حـــرص الناقد المصرى على استمالة النظام الحاكم آنذاك للسماح لنجيب بالعودة إِلَى مصر، حَتَّى إنه قرّر صراحة فِى نهاية مقاله: "إِن حنين هَذَا الفنان (يقصد نجيب) إِلَى وطنه ليس جريمة، وتفكيره فِى بلاده عندما تأزَّمت بِهِ الأمور وانسدّت فِى وجهه الطرق هُوَ نوع من التوبة الصادقة ينبغى أن نقبله منه ونساعده عليه"!

وبالفعل عاد نَجِيب سُرُور عام ١٩٦٤ إلى أرض الوطن يحمل صَكَّ الْغُفْرَان الَّذِى نجح رجاء النقاش فِى استمالة النظام المصرى الحاكم آنذاك ليمنحه للفنـــان التائب -على حد تعبير رجاء النقاش فِى مقالته الشهيرة- نَجِيب سُـــرُور!! كـــان واضحا أن نجيب يحمل مخزونًا كبيرًا من المعرفـــة والخـــبرة الدراســـية والحياتيـــة، والمشاريع والأفكار، مع تقلُّص واضح فِى الفجوة مَا بين أقواله وأفعاله. دخل نجيب رأسًا فِى قلب الأحداث، وبشكل عاصف، ومتدفق، ومتعدد المجالات: فِى الإخراج المسرحى، والتمثيل، وكتابة الأغانى، وكتابة الشعر الحديث الَّذِى يتميـــز بتركيبـــه الدرامى -على الأخص فِى ديوانه الشيِّق "لزوم مَا يلزم"- وكتابة المسرح الشعرى، وهو مجال نشاطه الإبداعى الأساسىّ فِى هَذِهِ الْمَرْحَلَة. فقد جاء نَجِيـــب سُـــرُور حاملاً للمسرح الشعرى نقلة إِلَى مَرْحَلَة جديدة، مختلفة، وكان عمله التمهيـــدىّ لِهَذِهِ النقلة الرائعة هُوَ ملحمته الشِّعرِيَّة الشعبية "ياسين وبهيّة"... وكان قَد وضعها وهو فِى موسكو ثم بودابست. هَذِهِ الملحمة استطاع المخرج كـــرم مطـــاوع أن يُمَسْرِحَهَا بمهارة وإبداع، فكانت حدثًا مُهِمًّا يكشف قـــدرات الإخـــراج علـــى مسرحة الشعر عندما يتضمن الشعر عناصر الدراما.

وفِى المعهد العالى للفنون المَسْرَحِيَّة، حيث كان يدرس، كان يقول مَا يريد

كما يريد، ويلقى دروسه فِى المسرح وتاريخه من وجهة نظره العلميّة الثورية، الناقضة لوجهة نظر رئيس المعهد، وكان يومها رشاد رشدى. لِهَذَا طُرد نَجيب سُرُور من المعهد الَّذِى كان يقوم فِيهِ بتدريس مادَّتَى التمثيل والإخراج، فيهدم كل مَا يبنيه رشاد رشدى ويبنى كل مَا يهدمه، ويحاضر بكل صراحة وشجاعة عن أزمة المسرح فِى مصر. وعن محنته تلك يقول نَجيب سُرُور فِى استغاثته إِلَى محرر مجلة الكواكب عام ١٩٦٨ مَا نصُّه: "... فِى تقرير للخبير الفرنسى السيد توشار شهادة لى بأننِى أحسن أستاذ بالمعهد العالى للفنون المَسْرَحِيَّة، عرفت هَذَا من السيد الوزير نفسه ومن الدكتور مصطفى سويف. ومع ذَلِكَ وبعد عامين من التدريس فِى المعهد، وبعد هَذَا التقرير، فوجئت باستبعادى من المعهد! كيف؟! ولِمَاذَا؟! وهكذا، لاَ معهد، ولا عمل بالمؤسسة، ولا تعيين، ولا دخل منستظم، ولا مرتب ثابت، ولا اطمئنان إِلى اليوم والغد وما بعد الغد! ولا يمكن طبعًا الاعتماد على فرص العمل المتباعدة وغير المنتظمة فِى الإذاعة والتلفزيون"!

وتتكاثر الحوادث المؤلمة ويتشرد نَجيب سُرُور ويجوع، ويحاولون استيعابه بإغرائه بأن يقدم للتليفزيون أعمالاً ترفيهيّة لاَ تقول شيئًا ولا تتعرض لشىء مقابل آلاف الجنيهات، فيتعفف نَجيب سُرُور وهو الجائع المشرَّد، ويقول لعارض الصفقة هَذِهِ: "قُلْ لوزيرك إِن هَذِهِ اللعبة القذرة يجيدها غيرى، وهم أكثر من الهمِّ على القلب، أمّا أنا فلن أقبل هَذِهِ الرشوة المقنعة"! ويعود نجيب إِلى الجوع والتسكُّع، بل والاستجداء! ويتهمونه بالجنون، ويرسلونه إِلى مستشفيات المجانين!

ولندع الرجل يصف لنا واحدة من تَجَارِبه المخيفة والمرعبة فِى تلك المستشفيات الَّتِى يقرر، فِى رسالة استغاثة أرسلها إِلى يوسف إِدريس، أن مجموع المدد الَّتِى قضاها فيها بلغ أربع سنوات ونصفًا!! المهمّ، يقول نجيب عن تجربته

المريرة واللا إنْسَانية فِي مستشفى الأمراض العقلية الشهيرة بـ"العباسية": " لقد تلقّفونى فور عودتى من دمشق وأرسلونى، لكن مهلاً، ليس فِى معتقل من المعتقلات الحكومية المعروفة والمزدحمة بالنزلاء، وَإِنَّمَا فِى مستشفيات المجانين، مستشفى الأمراض العقلية بالعباسية!! المهم أننى خرجت من مستشفى الأمراض العقلية بمعجزةٍ حطامًا أو كالحطام! خرجت إِلى الشارع، إِلى الجوع والعرى والتشرُّد والبطالة والضياع، وإِلى الضرب فِى جميع أقسام البوليس المُخلِص فِى تنفيذ أغراض الأعداء والمحسوب علينا من المصريين أو نحن العرب! خرجت أدور وأدور كالكلب المطارَد بلا مأوًى، بلا طِفْلِى وزوجتى، وظللت مُجَمَّدًا محاصَرًا موقوفًا. وبعيدًا عن مجالات نشاطى كمؤلف مسرحى ومخرج وممثّل، وبعيدًا عن ميادين النشر كشاعر وناقد وزجّال ومؤلف أغان"!!

ويموت نَجيب سُرُور جائعًا مشرَّدًا، فِى غيبة زوجته وولديه، فقد اضطُرّت زوجته إِلى الذهاب إِلى موسكو مع ولديها شهدى وفريد لإرسال الأول إِلَى المدرسة الثانوية الداخلية بموسكو لعدم وجود مَرْحَلَة ثانوية بالمدرسة الروسية بالقاهرة آنذاك، وعدم إِتقانه للُغة العَرَبِيَّة اللازمة لالتحاقه بمدرسة ثانوية مصرية، ورغم أنها أوصت الكثيرين على زوجها فإِنّ غيبوبة السُّكْر نالت من الرجل، وكان قَد غادر شقّته بالهرم إِلى بيت أخيه ثروت بمدينة دمنهور. رحل نَجيب سُرُور عن دنيانا باكيًا حزينًا عاتبًا على مجتمع لاَ يجد الشجاعة حَتَّى الآن لرثائه. وذهب الجثمان إِلى قرية إِخطاب، تلك الّتِى طالما تغنّى بِهَا نجيب فِى مسرحياته وأشعاره، واتشحت القرية بالسواد، وكُتب على قبره بالبنط العريض:

قَد آن يا كيخوتُ للقلبِ الجريحْ
أن يستريحْ

فاحفر هنا قبرًا ونَمْ
وانقش على الصخرِ الأصمْ
يا نابشًا قبرى حنانَكَ
ها هُنَا قلبٌ ينامْ
لاَ فرق من عامٍ ينامُ وألفِ عامْ
هذى العظام حصادُ أيّامى
فرفقًا بالعظامْ!

تلك هِيَ حكاية نَجِيب سُرُور، دون كيخوته المصرى، سردهًا بأمانة وإيجاز ليعلم القارئ الْكَرِيم لِمَن يقرأ، فهَذَا الكتاب عمل نَقْدِىّ متميز آثر نجيب أن يودعه ذاكرة الزمن، وها نحن نحقّق لَهُ مَا تَمَنَّى! وجدير بالقارئ الْكَرِيم أن يعلم بأهَمِّيَّة وخصوصية هَذَا العمل لنَجِيب سُرُور، فقد ربطت بين نجيب وموضوعه صلة فكريّة وروحيّة وطيدة، يندر تكرارها. ويكفى أن نعلم أن رحلة نَجِيب سُرُور مع كتابات أَبِى الْعَلاَءِ بدأت فِى فترة مبكّرة من حياته، ففِى رسالة منه إِلى الناقد والأديب أنور المعدّاوى بمجلة الرسالة الشهيرة آنذاك، وهو بعدُ طالبٌ بمدرسة مغاغة الثانوية، بدا جليًّا مدى تأثُّره بالنهج العلائىّ، حَتَّى إنه يستشهد بأشعار وآراء أَبِى الْعَلاَءِ، على صعوبتها، خصوصًا لمن هم فِى مرحلته العمرية آنذاك. ليس ذَلِكَ فحسب فقد أخبرتنى زوجته السيدة ساشا بأن نجيب لَمْ يَكُن ليملّ مجالسة أَبِى الْعَلاَءِ، فهو حين يقرأ لَهُ يسمع منه، وهو حين يكتب عَنْهُ يتحدث إليه! فيا لَهَا من صداقة ويا لهما من صديقَين حميمَين!

والواضح أن نجيب لم يجد بين الأحياء خلاًّ وفيًّا، فآثر صداقة الرَّاحِل أَبِى الْعَلاَءِ! وكم كانت زوجته تسعد حين تراه فِى معيّة أَبِى الْعَلاَءِ التماسًا للسكينة

والصفاء! فهى تعلم ولع زوجها وشغفه واطمئنانه إِلَى أَبِى الْعَلاَءِ، حَتَّى إنها لَمَّا دفعت إِلَيَّ بنسخة قديمة للُّزوميات لأستعين بِهَا فِى تحقيق الكتاب الماثل، وجدها مليئة بالخطوط والعلامات، دلالة على تكرار نجيب لقراءتها وتعمقه فِى فهمها. والحقّ أنه ليس لصداقة كتلك أن تدوم لولا صفاء الصديقين، ولولا أن أحدهما - وهو الحيّ- يجد فِى معيّة أخيه مَا يهدّئ روعه.

والآن لنتحول إلى أَبِى الْعَلاَءِ الْمَعَرِّىّ ليعلم القَارِئ الْكَرِيم أى رجل هُوَ، حَتَّى إن نَجيب سُرُور يذهب فِى شغفه بِهِ وبقراءته إِلَى هَذَا المدى البعيد. يقول طه حسين عن أَبِى الْعَلاَءِ فِى ختام أطروحته للدكتوراه الَّتِى قدّمها إلى الجامعة المصرية عام ١٩١٤، بعنوان "تجديد ذكرى أَبِى الْعَلاَءِ": "... المسلمين لم يعهدوا بينهم فِى قديمهم وحديثهم فَيْلَسُوفًا مثله -يقصد أَبا الْعَلاَءِ الْمَعَرِّىّ- قَد جمع بين الفَلْسَفَة العلمية والعملية، ثم بينهما وبين العلم واللُّغة. وأَبُو الْعَلاَءِ هُوَ الفَيْلَسُوف الفذّ الَّذِى التزم ما لاَ يلزم عند المسلمين: فِى سيرته ولفظه، فحرم الحيوان والتزم النبات وأَبَى الزواج والنسل، وأراد اعتزال الناس. ولأَبِى الْعَلاَءِ شدّة غريبة فِى رفض الخمر. فقد حرّمها من جهات ثلاث: من جهة العقل والصحة والدين. وألّف فِى ذَمِّها كتابًا خاصًّا سَمّاه "حماسة الروح". وأَبُو الْعَلاَءِ هُوَ الفَيْلَسُوف الفذّ الَّذِى أنكر النبوّات، واعترف بالإله، وعرّض بالتكليف، وعارض القرآن وهزئ بشيء من أحكامه، ثم بقى مع ذَلِكَ سالمًا لم يُصِبْه أذًى فِى نفسه إلى أن مات. فإذا سألت عن عِلّة هَذِهِ السلامة فإنّا نحصرها فِى ثلاثة أشياء، الأول: مهارته فِى الاحتياط وإخفاء الرأى. الثانى: أن أكثر أيامه كانت أيام اضطراب سياسىّ بين حلب ومصر والروم، فلم يفرُغ لَهُ الحكام. الثالث: أن الدولة الَّتِى غلبت على حلب أيام فلسفته، وهى دولة

بنى مرداس، كانت دولة بدوية خالصة، لاَ تحفل بمثل هَذِهِ الموضوعات ولا تفكّر فيها، وَإِنَّمَا كل هَمِّها القهر والسلطان".

ويستمرّ طه حسين فِى تعريفنا بفَلْسَفَة أَبِى الْعَلاَءِ قائلا: "على أن أَبَا الْعَلاَءِ كان يدفع الحكام عَنْهُ، بكتب فِى اللُّغة يعنونها بأسمائهم، فيتخذ لَهُ بِذَلِكَ منهم أصدقاء، و لم يقصر هَذَا على حكام المرداسية، بل فعله مع الدزبرى، فألّف لَهُ كتابًا خاصًّا وهو نائب الفاطميين الذين يكرههم أَبُو الْعَلاَءِ، لذَلِكَ سلم من الأذاة الدينية فِى القرن الحادى عشر للميلاد، مع أن أمثاله من الفَلاَسِفَة الفرنج، كانوا يُقتلون ويُعذَّبون فِى القرن السادس عشر فِى أوروبا"!

ذَلِكَ هُوَ الإمام الضرير، شاعر الفَلاَسِفَة وفَيْلَسُوف الشعراء، الَّذى اشتهر، أكثر مَا اشتهر، باعتزاله الناس ولزوم بيته لاَ يبرحه، والاستقرار ببلده -مَعَرّة النُّعمان- لاَ يعدوه، حتَّى إنه قال فِى رسالة إِلى خاله أبى القاسم: "إنه وحشىّ الغريزة إنسىّ الولادة"... إِضافة إِلى حديثه الشهير فِى لزومياته عن محابسه الثلاثة:

أرانى فِى الثلاثة من سجُونى
فلا تسأل عن الخبر النبيث
لفقدى ناظرى ولزوم بيتى
وكون النفس فِى الجسد الخبيث

وهكذا لَمْ يَكُن أَبُو الْعَلاَءِ فَيْلَسُوفا فذًّا فحسب، وإنما كان شاعرًا وأديبًا أيضًا، فله شعر ونثر. ولا شكّ -طبقًا لطه حسين- فِى أنه قَد نظم كثيرًا من الشعر، وأن مَا ضاع من نظمه أكثر مِمَّا بقى، فإنه بدأ يعانى صناعة القريض فى الحادية عشرة من عمره، وقد نيف على الثمانين وما ترك القريض، وما أعرض

عنهُ. فمن المعقول أن يُنتج هَذَا العمر الطويل والعمل الكثير شعرًا كثيرًا، بيد أنه ليس لدينا من نظمه الآن إلاّ شيء لاَ يُقاس إلى مَا يروى التَّارِيخ من كثرة نظمه.

ويقول طه حسين إن الأمر فِي نثر أَبِي الْعَلاَءِ كالأمر فِي شعره، بل هُوَ أشدّ غرابة، وأدعى للعجب، فلا يوجد من نثره إلاّ رسالة الْغُفْرَان، ورسالة الملائكة، وطائفة من صغار الرسائل. ويحدِّثنا التَّارِيخ بأن ديوان رسائل أَبِي الْعَلاَءِ الْخَاصَّة كان ثمانمائة كراسة، فأين ذهب سائرها؟ على أن لأَبِي الْعَلاَءِ كُتُبًا أَدَبِيَّة ذهبت جملةً، ولم يعرف التَّارِيخ إلاّ أسماءها، ككتاب "الصاهل والشاحج"... وكتاب "تاج الحرّة"... وكتاب "الفصول والغايات"... وغيرها من الكتب، الَّتِي كانت تعيننا على فهم القيمة الكتابية، لأَبِي الْعَلاَءِ، لو سمح بهَا الزمان!!

تلك كانت نبذة موجَزة عن أَبِي الْعَلاَءِ الْمَعَرِّيّ، أوردناها ليعلم القَارِئ الْكَرِيم أيّ رجل شغف بفكره وشعره نَجيب سُرُور، ولو أن الموضوعية تفرض علينا تهيئة القَارِئ الْكَرِيم لمعالجة جديدة وشيّقة لكتابات أَبِي الْعَلاَءِ، يقدمها نَجيب سُرُور فِي كتابه هَذَا. فهو وإن اعترف بفضل السبق للأساتذة الأفاضل الذين عُنُوا بدراسة أَبِي الْعَلاَءِ وفِي مقدمتهم عميدا الأدب الْعَرَبِيّ طه حسين وعباس محمود العقّاد، فهو يُصِرّ على تقديم معالجة جديدة، يكشف بهَا مَا أسماه "الطبيعة الشِّفْرِيَّة لكتابات أَبِي الْعَلاَءِ النَّثرِيَّة والشِّعرِيَّة"... وهي معالجة مغايرة -بحق- لِمَا اعتاد أن يقدِّمه دارسو أَبِي الْعَلاَءِ، قديمًا وحديثًا، من معالجات تقليدية! ولعل هَذَا هُوَ السبب الَّذِي لأجله تَمَنَّى نَجيب سُرُور أن يقرأ لَهُ الكبار -على حدّ تعبيره- مَا كتبه عن أَبِي الْعَلاَءِ، تلك الأمنية الَّتِي عبَّر عَنْهَا نَجيب سُرُور فِي إحدى مقالاته بقوله: "إن الكبار لاَ يقرأون -عادة- للصِّغار! وكم أتمنَّى أن يقرأ طه حسين والعقّاد، كما أتمنَّى أن تقرأ بنت الشاطئ ولويس عوض، مَا كتبته حَتَّى الآن عن أَبِي الْعَلاَءِ وعن ابْن الْقَارِح! كما أتمنى لو أنهم لو أنهم أخذوا العبرة مِمَّا أورده أَبُو

الْعَلاَءِ على لسان ابْن الْقَارِحِ، حين قال لَهُ رؤبة بن العجاج متفاخرًا: أليس رئيسُكم... كان يستشهدُ بقولى ويجعلُنى لَهُ كالإمام؟ فيردّ ابْن الْقَارِحِ قائلاً: لاَ فخر لك أن استُشهد بكلامك، فقد وجدناهم يستشهدون بكلام أمة وكعاء (حمقاء)... وكم روى النحاةُ عن طفل، مَا لهُ فِى الأدب من كفل! فلأكُن مثل تلك الأمة الوكعاء أو مثل ذَلِكَ الطفل الَّذِى ليس لَهُ فِى الأدب!".

حسبك يا نجيب! فأنت أجلُّ وأسمى من أن تكون كأمّة حمقاء أو كطفل ليس لَهُ فِى الأدب! وأنا على ثقة كبيرة أن القَارِئ الْكَرِيم سيشاركنى الرأى عندما يقرأ هَذَا الكتاب الشيِّق وسيعلم إِلى أى مدى أدرك نَجيب سُرُور أَهَمِّـيَّة كتابات أَبِى الْعَلاَءِ النَّثرِيَّة والشِّعرِيَّة، بوصفها تجسيدًا لثورة عقلية فذّة، لطالما سعى نَجيب سُرُور للفت الأنظار إِليها ودُعى لمحاكاتها، باعتبارها الوسيلة الوحيدة للتطوُّر وتجاوز المحن الحياتية فِى عالمنا الْعَرَبِىّ المغبون. ثورة عقلية تدعو لاَ لنقد التُّرَاث الْعَرَبِىّ فحسب، ولكن لنقد التُّرَاث الإِنْسَانى كله! وهو مَا يمكن أن يُسْهِم فِى إقالة أمَّتنا من عثرتها. ولندع نَجيب سُرُور يحدثنا عن ذَلِكَ صراحة بقوله: "إِذن فصعوبة قِرَاءَة وفهم أَبِى الْعَلاَءِ صعوبة متعمَّدة واضطرارية وتكتيكية أمْلَتها دوافع التخفِّى والتنكُّر والتغطية، الأمر الَّذِى يجب أن يدفع القَارِئ (أظنه يعنى القَارِئ الْعَرَبِىّ) إِلى الإصرار على الصبر عليه والتصميم على فهمه، لاَ الانصراف عَنْهُ ولا الزهد فِيه إيثارًا للراحة وجريًا وراء السهولة، خاصَّة وأن فهم أَبِى الْعَلاَءِ بالذات والآن بالذات هُوَ -كما اتضح وسيتضح أكثر- مسألة حياة أو موت بالنسبة إِلى القراء العرب فِى ظلّ المتغيرات الجديدة فِى وطننا الْعَرَبِىّ الذبيح".

قارئى الْكَرِيم، أرانى مُلزَمًا الآن بتوضيح نَهْجِى فِى إعداد مَخْطُوطة الكتاب الماثل لِلنَّشْر، وكنت قَد ذكرت سلفًا أن السيدة الفاضلة ساشا كورساكوفا قد

أعطتنى فِى لقائى الأول بِهَا فِى مقهى ريش حزمة من الأوراق، أخبرتنى بأنها عمل مُهِمٌّ لنَجِيب سُرُور عن صاحبه ورفيق دربه أَبِى الْعَلاَءِ! وهو مَا حـدث بالفعـل، حيث اصطحبت الأوراق معى إِلى المترل ورحت أتصفحها. فوجدت أنها عبارة عن جزأين. يضم الجزء الأول سبع مقالات، تناقش فِى مجملها الفكر والشعر عند أَبِى الْعَلاَءِ. أما الجزء الثانى فهو عبارة عن دراسة طويلة تضم سبع حلقـات، بعنـوان "دليل القَارِئ الذكى إِلى عالم أَبِى الْعَلاَءِ"... تعالج بالتَّفْصِيل مَا أسماه نَجِيب سُرُور بالطبيعة الشُّفْرِيَّة لكتابات أَبِى الْعَلاَءِ. ولَمْ تَكُن لتلك الحلقات عناوين.

وبدا واضحًا أنه سبق نشر بعض تلك المقالات والحلقات فِى مجلات عَرَبِيَّـة مختلفة، وهو مَا أَكّدته السيدة ساشا كورساكوفا، فقد أخبرتنى بأن نجيب بدأ فِـى إرسال بعض المقالات والحلقات إِلى مجلّات عَرَبِيَّة مختلفة بعد عودته مـع أسـرته الصغيرة من الإِسكندرية عام ١٩٧٥، حيث أقامت الأسرة هنـاك لمـدّة ثـلاث سنوات تقريبًا، رغبة منه فِى الحصول على عائد مالىّ يساعده على عَـوْل أسـرته الصغيرة. وبدا واضحًا كَذَلِكَ أن نَجِيب سُرُور اعتمد فِى مَخْطُوطته على تحليـل الكتابات الشِّعرِيَّة والنَّثرِيَّة لأَبِى الْعَلاَءِ. وتضمُّ الكتابات الشِّعرِيَّة لأَبِى الْعَلاَءِ:

- سقط الزند: وهو ديوان يشتمل على أشعار نُظمت فِى أيام الصِّبا.
- الدِّرْعِيَّات: وهو ديوان، صغير، يشتمل على أشعار وُصفت فيها الـدرع خاصّة، ونُصَّ فِى ثبت الكُتُب على أنه كتاب مستقلّ، أُلحق بسقط الزند.
- اللزوميات: وهى أكبر الدواوين الثلاثة، وأَجَلُّها خطرًا، مثّلت حياة عقل أَبِى الْعَلاَءِ ووجدانه وخلقه أحسن تمثيل.

أما الكتابات النَّثرِيَّة لأَبِى الْعَلاَءِ الَّتِى اعتمد عليها نَجِيب سُرُور فِـى هَـذَا الكتاب فهى "رسالة الْغُفْرَان"... و"رسالة الملائكة"... وطائفة من صغار الرسائل.

وجاء التعامُل مع مَخْطُوطة هَذَا الكتاب علـــى مـــستويَين: الأول تقـــسيم الكتاب لجزأين، يضمُّ الجزء الأول مجموعة مقالات تُعنَى بالفكر والشعر عند أبِـــى الْعَلاَءِ. ولحسن الحظّ ترك لنا نَجيب سُرُور عناوينَ بعينها لتلك المقـــالات، أبقينـــا عليها بالطبع، غير أن نجيب لم يختَرْ عنوانًا للجزء الأول فِى مُجمَله، ومن ثم اخترنا أحد عناوين المقالات المذكورة، كعنوان لِهَذَا الجزء، وهو "الفكـــر والـــشعر فِـــى مَنْظُور أَبِى الْعَلاَءِ"... باعتباره الأكثر تعبيرًا عن مضمون الجزء الأول فِى مُجمَله.

أمّا الجزء الثانى فهو دراسة طويلة من سبع حلقات بعنوان "دليـــل القَـــارِئ الذكى إلى عالم أَبِى الْعَلاَءِ". وللأسف لم يضع سُرُور عناوينَ لتلك الحلقات، فكان علينا اعتبار كل حلقة فصلاً مستقلاًّ، وكان علينا أيضًا اختيار عنوان لكل فصل من واقع مضمون الفصل نفسه، حَتَّى تظلّ الرُّوح السرورية مهيمنة على النَّصّ.

وعلى المستوى الثانى حَرَص كاتب هَذِهِ السطور على مراجعة النَّصّ كلمـــةً كلمةً، وحرفًا حرفًا، وكذا مراجعة المصادر العلائية للتأكُّد من دقّـــة الاقتباســـات السرورية، فلنا أن نعرف أن نَجيب سُرُور وضع هَذَا الكتاب القيِّم والشيِّق، وهـــو فِى وضع لاَ يُحسد عليه وفِى ظلّ ضغوط نفسية رهيبة، نحمد الله أنها لم تؤثر تأثيرًا ملحوظًا على رصانة هَذَا العمل القيِّم. فقد كان نجيب حين يكتب يتمتع بـــصفاء ذِهْنِيّ يحسده عليه الكثيرون، مِمَّن يعجزون عن الإبداع وهم فِى وضع أفضل منه، فهو الإِنْسَان الَّذِى لطالما عانى الجوع والتشرُّد والظلم!

وليس لنا أن ننسى أن مَخْطُوطة هَذَا الكتاب، فِى جزء كبير مِنْهَا، كانـــت صورة ضوئيّة باهتة للنسخة الأصلية الَّتِى لاَ أدرى مصيرها ولا فِى أى يد وقعت.

ولقد ألحقت بِهَذَا الكتاب ثبتًا بأعمال ومؤلفات نَجيب سُرُور، استندت فِى إعداده على الثَّبْت الَّذِى أورده الأستاذ محمد دكروب فِى ختام دراســـة نَجيـــب

سُرُور القيِّمة "رحلة... فِي ثلاثية نجيب محفوظ"... الصادرة عن "دار الفكر الجديد"... ضمن سلسلة "الكتاب الجديد"... بيروت ١٩٨٩، بيد أننى أضفت وحذفت الكثير من المعلومات الَّتِي لم تدركها الطبعة المذكورة، و لم يُحِطْ بِهَا الأستاذ محمد دكروب.

على أية حال، يظلُّ هَذَا الكتاب القيِّم الجميل نثرًا ثقافيًّا رائعًا، ودراسة جديدة من نوعها فِي النَّقْد الأدبيِّ والفكريِّ الْعَرَبِيّ، نتمنى أن تتبوأ هِيَ وصاحبها المكانة اللائقة بِهَا فِي الذاكرة العَرَبِيَّة، وكذا المكتبة العَرَبِيَّة. على أمل أن يتسنَّى لكاتب هَذِهِ السطور فِي المستقبل القريب وضع دراسة يخصِّصها لتحليل النزعة الإِنْسَانية "الأَنْسَنِيَّة" عند نَجِيب سُرُور، فِي إطار سعيه الدءوب لإرساء دعائم تيار ثقافِيٍّ أَنْسَنِيّ فِي هَذِهِ المنطقة المضطربة والمليئة بالصراعات والهموم.

ولِكُلِّ من ساعد على إِخراج هَذَا العمل القيِّم إلى النور عظيم الشكر وجزيل الثناء، خصوصًا السيدة الفاضلة ساشا كورساكوفا أرملة الرَّاحِل النبيل نَجِيب سُرُور، فقد احتفظت بتلك الَمخْطُوطة طوال تلك السنوات الطويلة، وأصرّت على أن تُنشر مكتملة تنفيذًا لوصية زوجها الرَّاحِل، فلطالما كرّر نَجِيب سُرُور على مسامعها إِعجابه الفائق بثلاث شخصيات بعينها، رآها تجسيدًا حلوًا لعالمه المنشود، أولها المسيح عليه السلام، وثانيها دون كيخوته الشهير بطل رواية ثربانتس الشهيرة الَّتِي تحمل الاسم نفسه، وثالثها أَبو الْعَلاَءِ الْمَعَرِّىّ شاعر الفَلاَسِفَة وفَيْلَسُوف الشعراء.

حازم خيرى

سراى القبة فِي ٢٠٠٧/١١/١١

الجزء الأول

الفكر والشعر فِى مَنْظُور أبِى الْعَلَاءِ
"مجموعة مقالات"

المقالة الأولى

أَبُو الْعَلاَءِ الْمَعَرِّىّ بين الترغيب والترهيب

محنة هِيَ ومتعة أن ترفض العالم الَّذى لاَ يعجبك من أجل عالَم تتمناه، ومحنة هِيَ ومتعة أن تتحدى كل قوى الشر والقهر والاستبداد. ومحنة ثالثة أن تعاند قوى اليأس والتثبيط والإحباط فِي كل مَا حولك. ومحنة أن تقف من العالم المحيط بـك موقف النَّقْد، رغم أمراض البدن والروح. ومحنة أن ترى نفسك عملاقًا وسط أقزام، وناهة وسط أغبياء، ونابغة بين أوساط الناس وجهلائهم. إنها محنة ومتعة لاَ يحسُّها إِلاّ العمالقة من بنى الإنسان والعباقرة منهم على التخصيص حين يفسد الملح، كل الملح، تُطبق الظلمات وتتضافر قوى الشر على قهر الفرد والجماعات. وقلّة من بنى الإنسان هِيَ دَائِمًا الطلائع، وهى دَائِمًا الَّتِى تقف فِي وجه كل قوى الحصار، وبخاصة حين لاَ يبدو هناك بصيص من نور، وحين يتردد الإنسان بين قوى الترغيب وقوى الترهيب.

هَذِهِ فِي العادة وقفة لاَ يقفها إِلاّ أولئك الذين يُولدون أو يعيشون أو يموتون على الحافة، حافة الانتقال من عصر إلى عصر، الانتقال من مجتمع إِلَى مجتمع، ميلاد علاقات وموت علاقات أُخْرَى، قيام أبنية وانهيار أبنية أُخْرَى. قَد لاَ تكون هَذِهِ العملية ملحوظة ولا ظاهرة للعيان ولا مكشوفة بالدرجة الكافية، ولكن رصدها هُوَ مهمة الطلائع والنوابغ فِي كل العصور، وهم فِي هَذَا لاَ يعبرون عن وجدان خاص متفرد ولا متميز – وان كانوا كذَلِكَ بالفعل – ولكنهم يعبرون –شاءوا أو لم يشاءوا– عن حركة التَّارِيخ ووجدان الجماهير. وليس أمرّ على النفس الكبيرة،

والكبرياء المتمردة، الّتي تميز هؤلاء عادة على كل العصور، من أن تجد نفسها في دوّامة الإغراء والإرهاب والمساومة والتسليم والاستسلام والتحدّي والعناد والإصرار، إلى آخر مَا تثيره المعركة عادةً من آلام النفس والروح.

وليس لكل مَا قلناه نموذج أروع من الحوار الّذى دار يومًا مَا بين المعتزل المنتمى فِي نفس الوقت: الزعيم الإمام أَبِى الْعَلاَءِ الْمَعَرِّىِّ، و"دَاعِى الدُّعَاة". لقد بدأ دَاعِى الدُّعَاةِ مراسلة أَبِى الْعَلاَءِ من منطق مختلف تمامًا، وموقع مختلف تمامًا عن منطق وموقع رهين المحبسين، بل رهين الثلاثة المحابس. واضطُرّ أَبُو الْعَلاَءِ إلى الردّ، والردّ والرسائل وثيقة ضميرية هامّة وشيّقة ونموذجيّة، تُعتبر درسًا فِي الصمود وفِي أخلاق الرجال وفِي كبرياء النوابغ.

قال "ياقوت الحموى" فِي معجمه "مُعْجَم الأدباء": "إِن أبا نصر بن أبي عمران دَاعِى الدُّعَاةِ بمصر لَمَّا قرأ قول أَبِى الْعَلاَءِ:

غدوت مريض العقل والقلب فالقَنى

لتُخبرَ أنباء العقول الصحائح

كتب إِلى الْمَعَرِّىّ يقول لَهُ: أنا ذَلكَ المريض رأيًا وعقلاً، وقد أتيتك مستشفيًا فاشْفِنِي. ودارت بينهما مراسلات فِي ذَلكَ.

ولما وقفت على ذَلكَ (والكلام هنا لياقوت) اشتهيتُ أن أقف على صورة مَا دار بينهما على وجهه، حَتَّى ظفرتُ بمجلّد وفيه عدة رسائل من أبِى نصر هبة الله بن موسى بن أبِي عمران إِلى الْمَعَرِّىّ فِي هَذَا المعنى، وانقطع الخطابُ بينهما على المساكتة. ونقلُها على الوجه يطولُ، فلخّصتُ مِنْهَا الغرض دون تفاصُح الْمَعَرِّىّ وتشدُّقه"!

* * *

بدلاً من السخرية

إما أن "المساكتة" تمّت بعد تمام التراسل بين أَبِى الْعَلاَءِ ودَاعِى الدُّعَاة، بمعنى أن يكون دَاعِى الدُّعَاةِ قَد اقتنع بردود أَبِى الْعَلاَءِ كما هُوَ متوقَّع وبمعنى أن يكون قَد فهم مَا يقصده أَبُو الْعَلاَءِ بالبيت المذكور فِى اللزوميات، وإما أن تكون المساكتة كما يغلب الظن عندنا راجعة إِلى عجز دَاعِى الدُّعَاةِ عن استنطاق أَبِى الْعَلاَءِ واستبطان داخلته ومعرفة سرّه، وإما أن تكون المساكتة من جانب ياقوت نفسه، خصوصًا وأنه يشير إِلى مجلّد من الرسائل بين أَبِى الْعَلاَءِ ودَاعِى الدُّعَاة ويشير إِلى أنه اختصره اختصارًا يبدو فِيهِ العمد وسبق الإصرار أكثر مِمَّا تبدو فِيهِ العفوية. كما لاَ ننسى دلالة هجوم ياقوت على أَبِى الْعَلاَءِ بالذات لاَ على دَاعِى الدُّعَاةِ وذَلِكَ حين اتّهم أَبَا الْعَلاَءِ بالتفاصُح والتَّشدُّق، مِمَّا يدل على الرغبة فِى الترضية وذَلِكَ بغير موجب يستدعى الهجوم مِمَّا تقرؤه فِى ردود رهين المحبسين على دَاعِى الدُّعَاةِ، بل الأوجب والأقرب إِلى المنطق أن يقف ياقوت إِلى جانب أَبِى الْعَلاَءِ بدلاً من السخرية الصريحة منه.

هَذَا موقف تمليه الاعتبارات الإنسانية قبل كل شىء مهما كانت ردود رهين المحبسين. ومهما يكن الأمر فلنترك دَاعِى الدُّعَاةِ يتكلم بنفسه ولنطرح المسألة برمتها أمام محكمة القراء وهى لاَ بُدَّ عادلة ولا بد أن تقف إِلى جانب أَبِى الْعَلاَءِ البرىء تَمَامًا من التفاصُح والتَّشدُّق، والبرىء تمامًا من كل التهم الأُخْرَى الَّتِى طالما وُجهت إِليه على مدى ألف عام. إن دَاعِى الدُّعَاةِ يبدأ رسالته بالنفاق الظاهر والثعبانية ليُزهّد أَبَا الْعَلاَءِ فِى الأدب ويُحبب إِليه الدنيا ويعرض عليه نوعًا من الترغيب: "الشيخ –أحسن الله توفيقه– الناطقُ بلسان الفضل والأدب، الَّذى ترك

مَن عداهُ صامتًا، مشهودٌ لَهُ بِهَذِهِ الفضيلة من كل مَن هُوَ فوق البسيطة. غــير أن الأدب الَّذى هُوَ جالينوسُ طِبِّه، وعنده مفاتيح غيبه، ليس مِمَّا يفيده كبير فائدة فِى معاشه أو معاده سوى الذِّكر السائر بِهِ الركبان، مِمَّا هُوَ إذا تسامح المذكور بِهِ علم أنه لَهُ بمكانه الجمال والزينة مَا دام حيًّا، فإذا رَمَت بِهِ يَدُ الْمَنون مِن ظَهْــر الأرض إِلى بطنها فلا بِحُسْنِ ذِكْره ينتفع، ولا بِقُبْحِهِ يستضرّ".

* * *

استدراج

ثم يستطرد داعى الدُّعاة فِى زعزعة إِيمان أَبِى الْعَلاَءِ بجدوى اعتزاله وزهــده وعذاباته بطريقة عدميَّة صارخة، فيقول: "وإذا كانت الصورة هَذِهِ كان مــستحيلاً منه -أيّده الله- مع وفور عقله، أن جعل موادّه كلها منصبّة إِلى أحكام اللُّغة العَرَبيَّة والتقعُّر فيها، واستيفاء أقسام ألفاظها ومعانيها، ووفّر عمره على مَا لاَ نتيجــة لَــهُ مِنْهَا، وترك نفسه المتوقدة نارُ ذكائها خلوًا من النظر فِى شأن معاده...".

ثم يستطرد دَاعِى الدُّعَاةِ فِى الاستدراج البوليسى لرهين المحبسين، فيقــول: "فإذا هُوَ -حرسه الله- بمقتضى هَذَا الحكم مرتوٍ من عذْب مشرب هَــذَا العلــم، وَإِنَّمَا ليس يبوح بِهِ لضرب من ضروب السياسة. والدليل على كونه ناظرًا لمعــاده سلوكُهُ سبيل العيش والتزهد...".

ويخلص دَاعِى الدُّعَاةِ بطريقة ماهرة خبيثة بعد هَذَا التكتيك إِلى مَــا يريــد فيستطرد قائلا: "... ولَمَّا رأيتُ ذَلِكَ وسمعتُ داعية البيت الَّذى يُعزى إِليه، وهو:

غدوت مريض الدين والعقل فالقَنى

لتعلم أنباءَ الأمور الصحائــــــح

فشددتُ إِليه راحلة العليل فِى دينه وعقله إِلى الصحيح الّذى ينبّئنـــى أنبــاء الأمور الصحائح. وأنا أولُ مُلَبٌّ لدعوته، معترف بخبرته، وهو حقيقٌ أن لاَ يوطئنى العشوة، فيسلك بى فِى المجاهل، ولا يعتمد فى ما يورده تلبيس الحقِّ بالباطل. وأوّل سؤالى عن أمر خفيف، فإِن استنشقتُ نسيم الشفاء، سقتُ السؤال إِلى المهم...".

إِنه التمهيد إِلى انزلاق أَبِى الْعَلاَءِ إِلى الفخ...

* * *

أَبُو الْعَلاَءِ يدرك

ولنستمع إِلى الصوت الآخر، صوت أَبِى الْعَلاَءِ، المدرك جيِّدًا للفخ المنصوب لَهُ وللطريق إِليه، والمصرّ على أن لاَ يترلق واضعًا فِى حسابه قرب دَاعِى الدُّعَاةِ من السلطة: "قال العبد الضعيف العاجز:

إِنّى أعدّ سيدنا الرئيس الجليل المؤيَّد فِى الدين -أطال الله بقاءه- مِمَّن ورث حكمة الأنبياء، وأعدّ نفسى الخاطئة من الأغبياء...

وهو بكتابه إِلى متواضع، ومَن أنا حَتَّى يكتب مثلُهُ إِلى مثلى؟! مثله فِى ذَلِكَ مثل الثُّريَّا كتبت إِلى الثَّرَى. وقد علم الله أن سمعى ثقيل، وبصرى عن الأبصار نقيل (غريب)...

إِن الله جلت عَظَمَتُهُ حكم علىّ بالإِزهاد، فطفقت من العُدم فِى جهاد، وأمّا قول الضعيف العاجز:

غدوتُ مريضَ العقل والدين فالقَنِى

فإنما أخاطب بِهِ مَن هُوَ فِي غمرة الجهل، لاَ من هُوَ للرياسة علَم وأصَّل...

فلما بلغ العبدَ الضعيفَ العاجزَ اختلافُ الأقوال، وبلغ ثلاثين عامًا، سأل ربَّه إنعامًا، ورزقه صوم الدهر، فلم يفطر فِي السنة ولا الشهر، إلاّ فِي العيدين، وصبر على توالى الجديدين...".

على أنه لاَ بُدَّ من ملاحظة أن أَبَا الْعَلاَءِ استُدرج فعلاً، وإِلى درجة مَا، إِلى الفخ المنصوب، واندفع بطبيعته العنيدة يدافع عن النباتيين ويثير قضايا كان يمكن أن تُطيح برأسه فِي عصر المذاهب والطرائق والشّيَع، ولكن الأهمّ من ذَلكَ أن أَبَا الْعَلاَءِ يختم رسالته بقوله: " ومِمَّا حثّني على ترك أكل الحيوان أن الَّذِى لى فِي السنة نيف وعشرون دينارًا، فإذا أخذ خادمى بعض مَا يجب، بقى لى مَا لاَ يُعجبُ، فاقتصرت على فول وبُلسُن (العدس) وما لاَ يعذب على الألسن.

فأما الآن فإذا صار إِلى من يخدمنى كبير عندى وعنده هيّن، فما حظّى إِلاّ اليسير المتعيّن. ولست أريدُ فِي رزقى زيادة، ولا أوثر لسقمى عيادة، والسلام".

* * *

المصارحة المباشرة

ولكن دَاعِي الدُّعَاة أخطأ فهم رهين المحبسين، فبعد فشل التكتيك الخبيث الثعبانى الماكر خلص من الحوار الضمنى إِلى المصارحة المباشرة ليعرض غرضه الأصلى على رَهين المحبسين، فيقول فِي إحدى رسائله إِلى أَبِى الْعَلاَءِ: "... وقد كاتبتُ مولاى تاج الأمراء (يقصد الأمير ثمال بن صالح المرداسى، وهو يُلقّب أيْضًا مُعزّ الدولة) –حرس الله عزّه– أن يتقدم بإزاحة العلّة، فى ما هُوَ بلغةُ مثله من ألذّ

الطعام، ومراعاته على الإدرار والدوام، ليتكشف عَنْهُ غاشية هَذِهِ الضرورة، ويجرى أمرُهُ فِي معيشته على أحسن مَا يكون من الصورة...".

ولكن أبَا الْعَلاَءِ رفض. وهكذا يكون موقف العبقرية، موقف الكبرياء والتحدِّى والصبر والإصرار ومواجهة كل الصعوبات وكل قوى القهر والترغيب فِي سبيل الانتماء فِي الاعتزال أو الاعتزال فِي الانتماء، وذَلِكَ على الحافّة بين عصر وعصر. إِنه رجل لكل العصور.

* * *

المقالة الثانية

منهج الشكّ بين أبى العَلاَءِ وديكارت وطه حسين

- لاَ تُوَلُّوا أمورَكم أيدِىَ النا س إذا رُدَّت الأمورُ إليكـــــــم
- تنامُ أعينُ قومٍ عن ذخائرهم والطالبـــون أذاهـــم مَـــا ينامـــونا

أَبُو الْعَلاَءِ

يسود الاعتقاد بين المثقّفين العرب بأن طه حسين استقى منهج الشّكّ الّذى نظر بِهِ إِلى "الشعر الجاهلى" من الفَيْلَسُوف الفرنسى ديكارت! ولعل طه حسين قَد استمرأ هَذِهِ النغمة فراح يُردِّدها ويُكررها، رُبَّمَا طلبًا للسلامة ونوعًا مـــن الحـــذر والحيطة وحتّى لاَ يُعرِّض نفسه لأخطار متوقّعة!

فهل صحيحٌ هَذَا الاعتقاد؟!

الواقع أنه غير صحيح على الإطلاق، فطه حسين ذو طبيعة "فنّـــيّة" كمـــا أشرت إِلى ذَلِكَ فِى غير هَذِهِ المناسبة، وهو لاَ يملك الطبيعة "العقلانية" ولا العقليـــة الفلسفية الّتِى تمكّنه من أن يطبِّق منهج الشكذ عند ديكارت على الشعر الجـــاهلى بالذات ويستنتج من التطبيق النتائج المنطقية اللازمة الّتِى أثارت عليه الرأى العـــامّ الْعَرَبِىّ فِى حينها.

ثم إِن ديكارت بعيد تَمَامًا عن الموضوع والقفزة منه إِلى الشعر الجاهلى قفزة مستحيلة. وما لَمْ تَكُن الأفكار الأساسية الّتِى قام عليها كتاب طه حـــسين "فِـــى

الشعر الجاهلى" جاهزة بين يديه وناضجة وواضحة وصريحة لما كان لَهُ أن يراها فِى ضوء منهج الشَّكّ عند ديكارت، فأين رآها طه حسين؟!

رآها جاهزة وناضجة وصريحة عند أَبِى الْعَلاَءِ الْمَعَرِّىّ، وفِى رسالة الْغُفْرَان على التحديد، وإن كانت بذورها وأصداؤها مبعثَرة فِى مقدِّمَتَى "سقط الزند" و"لزوم مَا لاَ يلزم" ومترددة بين الصراحة والضمنية كما فِى الديوانين المذكورين. فلِمَاذَا لاَ نردّ الأَشْيَاء إِلَى أصولها الحقيقية؟ ولِمَاذَا نتمسح بديكارت ونغمط سبق وحقّ أَبِى الْعَلاَءِ؟! رُبَّمَا -كما قلت- إيثارًا للسلامة، فمن الخطر على كل حال الإشارة إِلَى أَبِى الْعَلاَءِ أو الاقتراب منه أو تبنِّى أفكاره. وطه حسين بالذات كان رجلاً يجيد الاحتياط لنفسه ويقدِّر الظروف المحيطة بِهِ.

* * *

المنحول والصحيح

فِى السطور الأولى من رسالة الْغُفْرَان يَرِدُ ذكر أبى زيد الأنصارىّ البصرىّ الَّذِى روى عن خلف الأحمر الَّذِى أتى إِلَى الكوفة ليكتب عنهم الشعر فبخلوا عليه بِهِ فكان يعطيهم المنحول ويأخذ الصحيح، فلمَّا مرض قال لهم: "ويلكم، إنى تائب إِلَى الله. هَذَا الشعر لى". فلم يقبلوا منه فظلّ منسوبًا إِلَى العرب لِهَذَا السبب! وإذا كان هَذَا عن الشعر فى ما بعد الإسلام فهو أصدق على الشعر الجاهلىّ. وعندما يصبح الشعر مَحَلاًّ للشك بين الصحيح والمنحول -الإسلامى والجاهلى بالتالى- فإن هَذَا يُعرِّض التُّرَاث كلّه للشكّ، لأن الشعر الجاهلى هُوَ المصدر أو المرجع اللُّغوى الأساسىّ. مِمَّا يشكك أَيْضًا فِى كل مَا رواه الرواة من شعر أو من خبر!

وما دام المنحول تَسَرَّبَ إِلَى الشعر الجاهلى فمعنى هَذَا أنه تسرَّب إِلَى كل التُّـــرَاث فى ما بعد الجاهلية، فمَاذَا نصدِّق ومَاذَا نكذِّب؟ إنه مأزق بديع الزمـــان الهمـــذانى القائل:

إِيَّاك وَاحْذَرْ أنْ تَكُو نَ مِنَ الثِّقَات عَلَى ثِقَةْ!

على أن أَبَا الْعَلاَءِ يُلِحُّ على المنحولات فِى التُّرَاث الْعَرَبِىِّ الجاهلى والإسلامى والقديم والحديث الحاحًا غريبًا على طول رسالة الْغُفْرَان، ولكن بذكاء نادر لأنــه يعلم خطورة مَا يقول.

يفعل الرجل ذَلِكَ من خلال لقاءات ابْن الْقَارِحِ المتخيَّلة والمدبَّرة لمختلــف النحاة واللغويين والرواة والشارحين والحَفَظَة وشعراء الجاهلية والإســلام، ومــن خلال سؤال ابْن الْقَارِحِ عمّا ينسبه إليهم الرواة والمؤوِّلون والمصحِّفون والناحلون، ومن خلال مَا يورده ويحيل إِليه من أسماء الشعراء أو من خلال استشهاداته بأبيات وقِطَعٍ لهم.

ففِى لقاء مع النابغة الذبيانى يقول ابْن الْقَارِحِ: "لله درك يا كوكب بنى مُرّةَ! ولقد صحّف عليك أهل العلم من الرواة. وكيفِ لى بأبِى عمرو المازنى والــشيبانى وأبِى عبيدة وعبد الملك وغيرهم من النَّقَلة لأسألهم كيف يروُون وأنت شاهد لتعلم أَنّى غير المتخرِّص ولا الولاَّ غ؟".

ثم يسأل ابْن الْقَارِحِ النابغة عن قوله:

ألَمّا علـــى المطـــورة المتأبــــدة

أقامت بِهَا فِى المرْبَــع المتحـــردة

فيقول النابغة فينكر نسبتها إليه: "مَا أذكر أنّى سلكت هَذَا القرى قط!!". فيقول ابْن الْقَارِحِ: "إن هَذَا لَعجب! فمن الَّذِى تطوع فنسبها إليك؟". فيقول: "إنها لم تُنسب إلَىّ على سبيل التطوُّع، ولكن على معنى الغلط والتوهُّم، ولعلها لرجل من بنى ثعلبة بن سعد". فيقول نابغة بنى جعدة -وكان حاضرًا المجلس-: "صحبنى شابٌّ فِى الجاهلية ونحن نريد الحيرة، فأنشدنى هَذِهِ القصيدة المنسوبة إلَى النابغة الذبيانى لنفسه، وذكر أنه ابن ثعلبة، وصادف قدومه شكاة من النعمان، فلم يصل بِهَا إليه". فيقول نابغة بنى ذبيان: "مَا أجدر ذَلِكَ أن يكون!".

هنا يسجل أَبُو الْعَلاَءِ الشَّكّ، لاَ فِى أخطاء لغوية أو نحوية أو لحنية مِمَّا تخطِّينا الكثير منه عمدًا لضيق النطاق وكثرة الاستشهادات، وإنما فِى قصيدة كاملة من الشعر الجاهلى تُنسب ظلمًا إلَى النابغة الذبيانى!

ثم يشير أَبُو الْعَلاَءِ إلَى النسيان الَّذِى كان سببًا فِى ضياع الكثير من التُّرَاث الْعَرَبِىّ الجاهلى والإسلامى، مِمَّا أتاح الفرصة كاملة لتسلُّل المدسوس والمنحول والمغلوط والمصحَّف، وذَلِكَ فِى لقاء ابْن الْقَارِحِ بعوران قيس: تميم بن مقبل العجلانى، وعمرو بن أحمر الباهلى، والشماخ معقل بن ضرار، وراعى الإبل عبيد بن الحصين النميرى، وحميد بن ثور الهلالىّ. وذَلِكَ حين يقول ابْن الْقَارِحِ للشمّاخ بن ضرار: "لقد كان فِى نفسى أشياء من قصيدتك الَّتِى على الزَّاى وكلمتك الَّتِى على الجيم فأنشدنيهما لاَ زلت مخلَّدا كريمًا".

فيقول الشماخ: "لقد شغلنى عنهما النعيم الدائم فما أذكر منهما بيتًا واحدًا". فيقول ابْن الْقَارِحِ لفرط حبِّه بالأدب: "لقد غفلت أيها المؤمن وأضعت! أما علمت أن كلمتيك أنفع لك من ابنتيك، وأن القصيدة من قصائد النابغة لأنفع لَهُ من ابنته عقرب؟!".

انظروا إلَى أى حدٍّ يقدّس أَبُو الْعَلاَءِ هنا التُّرَاث ويحـرص علـى سـلامته ويأسف لضياعه؟

ثم ينشده قصيدته الّتِي على الزّاى، فيجده بِهَا غير عليم! ثم يسأل عن عمرو بن الأحمر، فيحضر فورًا فيسأله عن أشياء فِي قصيدته الرائيّة فيجده غـير مبـالٍ. ويقول عمرو: "لم تترك فِي أهوال القيامة غبرًا للإنشاد. وقد شـهدت الموقـف، فالعجب لك إذا بقي معك شيء من روايتك". والقيامة والموقف إشارتان رمزيتان لما عاناه الشعراء فِي حياتهم من العذابات والأهوال.

فيقول تميم: "والله مَا دخلت من باب الفردوس ومعي كلمة من الـشعر ولا الرجز. وذَلِكَ أنِّي حوسبت حسابًا شديدًا، وإن حفظك لَمُبْقٍ عليك، كأنـك لم تشهد أهوال الحساب".

ثم يشكّك أَبُو الْعَلاَءِ فِي الشعر الْعَرَبِيّ كله عندما يحكى ابْن الْقَارِحِ قـصته يوم الموقف -القيامة- ومحاولاته رشوة رضوان خازن الجنّة وزُفـر خـازن النـار بأشعار موزونة على طراز قصائد جاهلية شهيرة فلا تحرّك أشعاره منهما سـاكنًا. ويسأله رضوان:

- وما الأشعار؟

- الأشعار جمع شعر، والشعر كلام موزون تقبله الغريزة على شـرائط، إذا زاد أو نقص أبانه الحس، وكان أهل العاجلة يتقربون به إلَى الملوك والرؤساء.

ويقول زُفر: "لاَ أشعر بالَّذِي قصدت، وأحسب هَذَا الَّذِي تجيئني بِهِ قـرآن إبليس المارد ولا ينفق على الملائكة، إِنَّمَا هُوَ للجانّ وعلّموه ولد آدم... فمن أيـن أنت؟ فيقول: "من أمّة محمد بن عبد المطلب". فيقول زُفر: "صدقت، ذَلِـكَ نـبي

العرب، ومن تلك الجهة أتيتني بالقريض، لأن إبليس اللعين نفثه فِى إقليم العـــرب فتعلمه نساء ورجال".

إن نسبة الشعر الْعَرَبِىّ إِلَى إبليس تشكيك مَا بعده تشكيك فِـــى التُّـــرَاث الشعرى كله. وكذَلِكَ نسبته إِلَى الجانّ، خصوصًا إذا وضعنا فِى اعتبارنا الأشـــعار الَّتِى نسبها أَبُو الْعَلاَءِ إِلَى الجنّ فِى رسالة الْغُفْرَان والتى هِىَ من وضعه بغير شكّ، ثم إن العرب -كما يقول- كانوا يقولون الشعر على الغريزة والفطرة والعفوية، ولكن هناك أناسًا أو قومًا تعلّموه رجالاً ونساءً ولَمْ يَكُن يتعلمه العرب! من هنـــا فُـــتح الباب على مصراعَيه أمام الشعر المصنوع المنحول المدسوس الَّذِى يرفـــضه الحـــسّ الْعَرَبِىّ الأصيل، وأَبُو الْعَلاَءِ من القلّة النادرة الَّتِى كانت تتمتع بِهَذَا الحسّ. ومَـــاذَا حين يُرَدّ الشعر كله إِلَى إبليس وأعوانه؟ ومن إبليس وأعوانه فِى مُعْجَم أَبِى الْعَلاَءِ؟ هَذَا مَا نَعِد بالقول فِيهِ قريبًا.

* * *

الصافِى والمخلوط

أين الخالص الصافِى من تراثنا؟ وأين المخلوط؟!

وهكذا يُشهِر أَبُو الْعَلاَءِ منهج الشكّ كالسيف القاطع على طول رحلة ابْن الْقَارِحِ فِى رسالة الْغُفْرَان، وشعاره كما ورد فِى اللزوميات:

وكيـــف أرجّى من زمانِى زيادة
وقد حذف الأصلىَّ حذفَ الزوائدِ

وقوله:

فان تعهديني لاَ أزال مـــسائـــلاً
فإنِّيَ لم أُعطَ الصحيحَ فاســتغني

ثم قوله:

تَلَـــوْا بـــاطلاً وجَلَـــوْا صـــارمًا
وقـــالوا صـــدقنا، فقلنـــا نعـــم!

وكثير غير هَذَا.

ولكثرة الاستشهادات العلائية لاَ أملك إلاّ أن أحيل القَارِئ إِلَى حديث ابْن الْقَارِحِ مع حمزة بن عبد المطلب، لأنه -كما يقول أَبُو الْعَلاَء-: "شاعر، وإخوتـــه شعراء، وكذَلِكَ أبوه وجده، ولعله ليس بينه وبين معد بن عدنان، إلاّ من قَد نظم شيئًا من موزون". فأين شعر حمزة بن عبد المطلب وشعر آبائه وأجـــداده؟ ثم مَـــا دلالة تأصُّل الشعر فِيهِ أبًا عن جدٌّ؟ وما النتائج المترتبة على هَذَا إن صحّ، وهـــو لاَ شكّ صحيح؟!

ثم أُحيلُ القَارِئ إِلَى مقابلة ابْن الْقَارِحِ للنحويّ أبي عليٌّ الفارسيٌّ وقوم مـــن الشعراء يحيطون بِهِ ويقولون: "تأوَّلْتَ علينا وظلمتَنا!"... أي افتريت علينا ورويت عنّا كذا زُورًا وبهتانًا. ثم إذا جماعة من هَذَا الجنس، كلهم يلومونه على تأويله.

ثم هناك المقابلة مع حميد بن ثور. ثم الأبيات المنسوبة حَتَّى إِلَى الخليل بـــن أحمد، والتي يتبرأ مِنْهَا الخليل:

إن الخلـــــيطَ تـــــــصـــدَّعْ
فَطِـــــرْ بِـــــدَائِكَ أَوْ قَـــعْ...

ثم سؤاله لامرئ القيس عن التسميط (القيام بضم شطر من عنده إِلَى شـــطر من قصيدة كتبها غيره) المنسوب إِليه ببعض الأبيات فيقول امرؤ القيس: "والله مَـــا

سمعت هَذَا قط، وإنه لفرىً لم أسلكه، وإن الكذب لكثير. وأحسب هَـذَا لبعض شعراء الإسلام، ولقد ظلمنى وأساء إلىّ... يُقال لى مثل ذَلِكَ؟ والرجز من أضعف الشعر، وهَذَا الوزن من أضعف الرجز". فيَعْجَبُ ابْن الْقَارِحِ من امرئ القيس! ثم لقاؤه مع عمرو بن كلثوم، ومع أوس بن حجر. ثم يروى فِى نفس الوقت للنابغة، ثم لقاؤه بالمهلهل وتأبّطَ شرًّا وما يُروى عَنْهُ من نكاح الغيلان. فيقول تأبّط شـرًّا: "لقد كنا فِى الجاهلية نقول ونتخرص (نكذب)، فما جاءك عنّا مِمَّا ينكره المعقول، فإنه من الأكاذيب، والزمن كله على سجيَّة واحدة". أى:

كذّبِ الظنَّ لاَ إمامَ سوى العقــ ـــلِ مشيرًا فِى صبحه والمساءِ

تُرى كم يتبقى من تراثنا؟ ومَاذَا يتبقى إذا حكّمنا فِيهِ العقل والفكر أحـرارًا من المحاذير والمخاوف والروادع والقيود والأوهـام وأوثـان العقـل والوجـدان والضمير؟

ثم يأتى لقاء ابْن الْقَارِحِ بآدم وسؤاله لَهُ: "يا أبانا، صَلَّى الله عليك، قَد رُوِى لنا عنك شعر منه قولك:

نَحن بنو الأرض وسكانُهـا مِنْهَا خُلقنـا وإليهـا نعـودْ
والسعـد لاَ يبقى لأصحابه والنحس تَمحوه ليالى السعودْ

وهنا يتجلى منهج الشكّ عند أَبِى الْعَلاَءِ فِى غاية قوّته وسخريته، فحَتَّى آدم لم ينجُ من المنسوب والمنحول والدخيل. هُوَ أَبُو الْعَلاَءِ الَّذِى يقول فِى اللزوميات:

جائزٌ أن يكونَ آدمُ هَذَا قَبْلَهُ آدمٌ على إثْر آدم!

ويقول أَيْضًا:

وما آدمٌ فِى مذهب العقل واحدًا ولكنه عند القِيَاس أوادم!

والمهمُّ أن آدم هَذَا يقول عن الأبيات المنسوبة إليه: "إن هَذَا القول حقٌّ، وما نطقه إلا بعض الحكماء، ولكنى لم أسمع بِهِ حَتَّى الآن".

فيقول ابْن الْقَارِحِ: "فلعلك يا أبانا قلته ثم نسيت؟ فقد علمت أن النسيان مُتسرع إليك".

فيقول آدم: " أبيتم إلاّ عُقوقًا وأذيّة! إِنَّمَا كنت أتكلم العَرَبِيَّة وأنا فِي الجنّة، فلما هبطت الأرض، نُقل لسانى إِلَى السريانية، فلم أنطق بغيرها إلى أن هلكت، فلمّا ردّنى الله، سبحانه وتعالى إلى الجنة، عادت علىّ العَرَبِيَّة، فأىَّ حِينٍ نظمت هَذَا الشعر: فِي العاجلة أم الآجلة؟ والَّذِى قال ذَلِكَ، يجب أن يكون قاله وهو فِي الدار الماكرة، ألا ترى قوله "مِنْهَا خُلقنا وإليها نعود" فكيف أقول هَذَا ولسانى سريانىّ؟ وأمّا الجنة قبل أن أخرج مِنْهَا فلم أكُن أدرى بالموت فيها، وأنه مِمَّا حُكم بِهِ على العباد، وأمّا بعد رجوعى إليها، فلا معنى لقولى "وإليها نعود" لأنه كذب لاَ محالة!".

حُجَّة قوية وعقلانية ومُفحِمة ولا نقض لَهَا.

ويقول ابْن الْقَارِحِ: "إن بعض أهل السير يزعم أن هَذَا الشعر وجده يعرُبُ فِي مُتقدّم الصُّحُف بالسريانية، فنقله إلى لسانه، وهَذَا لاَ يمتنع أن يكون. وكَذَلِكَ يروُون لك -صلَّى الله عليك- لَمَّا قتل قابيل هابيل، ويذكر لَهُ بيتين منسوبين إليك فِي ذَلِكَ". فيقول آدم: "أعزز على بكم معشر أُبَيْنِىَّ! إنكم فِي الضلالة متهوكون! آليت مَا نطقتُ هَذَا النظيم، ولا نُطق فِي عصرى، وَإِنَّمَا نظمه بعض الفارغين، فلا حول ولا قوة إلاّ بالله! كذبتم على خالقكم وربكم، ثم على آدم أبيكم، ثم على حواء أمكم، وكذب بعضكم على بعض!".

إذن... تُرى مَا الَّذِى خلا من الكذب والمكذوب فِي الشعر الجاهلى والإسلامىّ وفِى السير والروايات والأحاديث والأخبار؟! ألا يضع هَذَا حَتَّى تراث

أبِى الْعَلاَءِ نفسه تحت مِجْهَر الشَّكّ؟ لِمَاذَا يكون قَد أفلت من الحبالة المحبوكة حول كل تراث؟! هَذَا سؤال نطرحه على سبيل الاحتياط وبمنهج الشَّكّ العلائىّ نفسه.

* * *

الشَّكّ بينهما

ثم مَا الّذِى تبقّى لمنهج الشَّكّ عند ديكارت وعند طه حسين؟ أليس أبُو الْعَلاَءِ على حقٍّ حين يقول:

أرى هذيانًا طال فِى كلِّ أمَّة
يضمِّنه إيجازُها وشروحُها

وحين يقول:

وخطُّوا أحاديثًا لهم فِى صحائفٍ
لقد ضاعتِ الأوراقُ فيها وحِبْرُها

وأخيرًا، نقفز إِلى رسالة ابْن الْقَارِحِ نفسه فنراه يُلمّح كثيرًا لأبِى الْعَلاَءِ بالمدسوس والمنحول والمصحَّف، الأمر الّذِى يستفيض أبُو الْعَلاَءِ بعد ذَلِكَ فِى تفصيله. يقول ابْن الْقَارِحِ: "وسمعت قائلاً يقول لغلام: يا رحمة، اقلعه وأسرع"... يعنى ميزاب الكعبة. فعلمت أن أصحاب الحديث "صحّفوه"... فقالوا: يقلعه غلام اسمه رحمة، كما صحّفوا على علىٍّ رضى الله عَنْهُ قوله: "تهلك البصرة بالريح". فهلكت "بالزنج"! ثم يُقدِّم لأبِى الْعَلاَءِ ثبتًا بكتب ومراجع مسروقة أو ضائعة أو مخبوءة يعالجها أبُو الْعَلاَءِ أولاً بأوّل فِى ردّه على ابْن الْقَارِحِ.

كما يحكى الأخير فِى مطلع رسالته الحكاية التالية: "لقيت أبَا الْفَرَجِ الزهرجى بآمد ومعه خزانة كتبه، فعرضها علىّ، فقلت: كتبك هَذِهِ يهوديّة، قَد برئت من الشريعة الحنيفية، فأظهر من ذَلكَ إعظامًا وانكارًا"... فقلت لَهُ: "أنت على المجرب، ومثلى لاَ يهرف بِمَا لاَ يعرف". فقرأ هُوَ وولده، وقال: "صغر الخبر الخبر" وكتب إلَىّ رسالة يقرّظنى فيها".

وهنا نذكر قول أَبِى الْعَلاَء:

كل الّذِى تحكون عن مولاكم

كِذْب أتاكم عن يهودِ يحبر

فإذا كان هَذَا مصير المقدّسات، فما بالكم بغير المقدسات من الشعر الجاهلى والإسلامى؟!

ومن أين استقى طه حسين المنهج والشواهد والأدلّة والبراهين والنتائج؟!

إِن معاصرى طه حسين الذين حملوا عليه حملتهم الشعواء كانوا يعلمون جيدًا خطورة منهج الشّكّ العلائى، لذَلِكَ ما زالوا مُصِرِّينَ على أن يُحكِموا حوله الحصار ميتًا كما أُحْكِمَ حوله حيًّا!!

* * *

المقالة الثالثة

منهج الديالكتيك العلائى بين المذاهب المثالية والمادية

الْفِكْرُ حَبْلٌ مَتَى يُمْسِكْ عَلَى طَرَفٍ

مِنْـــهُ يُنَطْ بِالثُّرَيَّا ذَلِكَ الطَّـــرَفُ"

أَبُو الْعَلاَءِ

رأينا فى ما سبق أن أَبَا الْعَلاَءِ هُوَ صاحب منهج الشَّكّ لاَ ديكارت ولا طـــه حسين ولا أحد قبله أو بعده. ورأينا كيف أنه لم يقصد إِلى التشكيك فِى الـــشعر الجاهلى وحده ولا فِى التُّرَاث الْعَرَبِيّ عمومًا وإنما قصد إِلَى التشكيك فِى التُّـــرَاث الإنسانىّ على الإطلاق، وفِى كل شىء وبغير استثناء! ولا يمكن فهم منهجه فِـــى الشَّكّ دون فهم طبيعة تكوينه وطبيعة تركيبه النفسى وتركيبته الفكريَّـــة، أعـــنى "فلسفته"... لأن منهج الشَّكّ لديه -كما سنرى- نابع من "موقفه الفلـــسفِى"... من رؤيته للفكر وللوجودَين الطبيعى والاجتماعى! وذَلِكَ بطريقة طبيعية وتلقائيـــة ومنطقية إِلى أبعد الحدود!

فما موقف أَبِى الْعَلاَءِ الفلسفِى؟! مَا مذهبه؟

يقول الرجل فِى لزومياته:

إِذا سألوا عن مذهبى فهْـــو بـــيِّنٌ

وهل أنـــا إِلاّ مثل غيرِىَ أبلـــهُ؟

فهل صحيح أن الرجل أبله؟ أَبُو الْعَلاَءِ؟!

إنه هُوَ نفسه الَّذِى يقول:

عش بَخيلاً كأهل عصرك هَـذَا
وتَبَالَـهْ فـإنّ دهـرك أبلَـهْ

أى أن الرجل ليس أبلهَ وإنَّما يتباله، وذَلِكَ على طريقته فِى التمويه والمناورة لأمر فِى نفس يعقوب!

ويقول:

ولمّا رأيت الجهلَ فِى الناس فاشـيًا
تجاهلت حَتَّى ظُنَّ أنّىَ جاهـل!

للرجل إذن مذهب، فما عساه يكون؟!

كان فَلاَسِفَة العصور الوسطى فِى أوروبا يقولون: "آمن كى تعقل".

فهل يقول أَبُو الْعَلاَءِ بالعكس تَمَامًا: "اعقل كى تؤمن"؟

وكان ديكارت يقول: "أنا أفكر إذن فأنا موجود".

فهل يقول أَبُو الْعَلاَءِ: "أنا موجود إذن فأنا أفكر"؟

إنه الَّذِى يقول:

كذَّبِ الظنَّ لاَ إمامَ سوى العقـــلِ مشيرًا فِى صبحه والمساءِ

ويقول:

سأتبع من يدعو إِلى الخير جاهـدًا
وأرحل عَنْهَا مَا إِمامى سوى عقلى

وليس فِى تاريخ الإنسانية على الإطلاق –وأتحمل المسئولية عن هَذَا الكلام– داعية للعقلانية وتقديس العقل كأَبِى الْعَلاَءِ. إنه ينصحك وبإلحاح وإصرار على أن

تتبع عقلك دَائِمًا، وبأن لاَ تُعوِّل على شيء مِمَّا قَد "يخالف المعقول" علــى حــدّ تعبيره فِي رسالة الْغُفْرَان!

إذن قَد يتبادر إِلى الذهن -على الفور- أن الرجل كان من الغُلاة فِي الكفر، كما يتبادر إِلى الذهن -فِي نفس الوقت- أنه كان من غُلاَة الإيمان!

فاتّباعه لعقله واتّخاذه لَهُ إماما لاَ إمام سواه يحتمل ضمنًا أو صراحة أنــه لاَ يمكن أن يؤمن قبل أن يعقل، بل لاَ بُدَّ أن يعقل لكى يؤمن. وهَذَا بــدوره يعــنى، ضمنًا أو صراحةً أَيْضًا، أنه لاَ يؤمن بعقل آخر -الله- فوق عقله أو فوق الوجود! ولكن هَذَا نفسه يحتمل ضمنًا أو صراحة أَيْضًا أنه لاَ يتخذ الإيمان وسيلة للتعقُّل بل يتخذ التعقُّل وسيلة للإيمان!

مُحيِّر فعلاً أَبُو الْعَلاَءِ، ولِهَذَا اختلف فِيهِ معاصروه ثم اللاحقون بِهِ، فــذهب أغلبهم إِلى أنه مغالٍ فِي الكفر، وذهب أقلُّهم إِلى أنه مغالٍ فِي الإيمــان، وأولئــك وهؤلاء ساقوا الحُجَج المقنعة والدامغة والتى لاَ تقبل النقض لإثبات مَا ذهبوا إِليــه! وهَذَا الخلاف الشديد حول مذهب الرجلِ هُوَ الَّذِى سجّله دَاعِي الدُّعَاةِ الفــاطمى أبو نصر بن أبِي عمران حين قرأ لَهُ بيته الشهير:

غدوت مريض العقل والدين فالقَنِى
لتُخبِر أنباء الأمور الصحائــــح

فكتب إِليه فى ما كتب يقول: "... ورأيت الناس فى ما يتعلق بدينه مختلفين، وفِى أمره متبلبلين، فكلٌّ يذهبُ فِيهِ مذهبًا، وحضرتُ مجلسًا جليلاً أُجــرِى فِيــهِ ذكره، فقال الحاضرون فِيهِ غثًّا وسمينًا، فحفظته فِي الغيب".

على أن حيرة دَاعِي الدُّعَاة ومعاصرِي أَبِي الْعَلاَءِ تتجلّى أكثر فِي قوله: "... وابتدأ يقول -أي أَبُو الْعَلاَءِ- إنّي طلبتُ الرشد مِمَّن لاَ رُشد عنده، وإن البيت الَّذِي قال مِمَّا تعلقتُ بِهِ وجعلته محجّة إلى استقراء طريقته ومذهبه، إِنَّمَا أراد الإعلام باجتهاده فِي التديُّن، وما حيلته فِي الآية المنزلة: [مَنْ يَهْدِ اللهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا]. فجمع بين المتضادَّين فِي كلمة واحدة. إنه إن كانت الآية حقًّا كان الاجتهاد باطلا"!

والحق أن دَاعِي الدُّعَاة معذور فِي حيرته، فإذا كان أَبُو الْعَلاَءِ يعلم بالأمور الصحائح فِي العقل والدين، فكيف يدّعي أن لاَ رشد لَهُ؟ وإذا كان لاَ رشد لَهُ فكيف يدّعي أنه يعلم بِهَا؟!

وإذا كان لَهُ رشد فلِمَاذَا يدّعي أنه لاَ يعلم؟ وإذا لَمْ يَكُن لَهُ رشد فكيف يدّعي أنه يعلم؟! لِهَذَا يستطرد دَاعِي الدُّعَاة فيقول: "... إن لله -سبحانه- أسرارًا لاَ يقفُ عليها إلاّ الأولياء، فنحن على ذَلِكَ السرّ ندور، وعلى باب مَن هُوَ عنده نطوف. فإن قلنا إنه حرسه الله -يقصد أَبَا الْعَلاَءِ- من أصحابه بدعوى صحّته فِي دينه وعقله، ومرض الناس على موجب قوله، قال: لاَ رُشد عندي، فنظمه فِي هَذَا المعنى يناقضُ نثره، ونثره يخالف نظمه، فكيف الحيلة؟!".

إذن أدرك دَاعِي الدُّعَاة التناقض الشديد فِي أقوال أَبِي الْعَلاَءِ الشِّعريَّة والنَّثريَّة. وهَذَا التناقض هُوَ الَّذِي فتح باب الخلاف الشديد حوله -على مصراعيه- أمام معاصريه واللاحقين بِهِ.

وهنا نلفت النظر إلى أن أَبَا الْعَلاَءِ يؤكّد لدَاعِي الدُّعَاة فِي رسالته "اجتهاده فِي التديُّن"! مِمَّا يعني أنه مؤمن بالله ومجتهد فِيهِ!

ولكن الرجل نفسه هُوَ الَّذِي يقول فِي اللزوميات:

اثنان أهلُ الأرض: ذو عقل بـــلا
دِينٍ وآخَرُ دَيِّنٌ لاَ عقـــلَ لَـــــهُ

وهَذَا يعني أن العقل يُلغِي الدين، وأن الدين يُلغِي العقل! وإذا صحّ أنه كان "مجتهدًا فِي التديُّن" -كما يدّعي- فمعنى هَذَا أنه لَمْ يَكُن يتبع عقله ولَــمْ يَكُــن يتخذه إمامًا لاَ إمام سواه، ولَمْ يَكُن من دعاة العقلانية. وأنه يتبع مبــدأ فَلاَسِــفَة العصور الوسطى -اللاحقين بِهِ- آمِنْ كي تعقل!

وإذا صحّ أن الرجل لَمْ يَكُن "مجتهدا فِي التديُّن" كما يدّعي، فمعنى هَذَا أنه كان يتبع عقله ويتخذه إماما لاَ إمام سواه وأنه كان من دعاة العقلانيّة ومن أتبــاع مبدأ "إعقِل كي تؤمن"!

فيا لَيت شعري مَا الصحيح؟! على حدّ تعبير أَبِي الْعَلاَءِ نفسه!

مرة ثانية أين يقف الرجل؟!

إن الدين شيء، والإيمان شيء آخر، كما يؤكّد القرآن: [قُلْ لَــمْ تُؤْمِنُــوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ]. وهَذِهِ نقطة فِي صـــالح أَبِــي الْعَلاَءِ، لأنه يمكن أن يكون غير متديِّن ويظلّ مع ذَلِكَ محتفظًا بنعمة الإيمان، فيكون لَهُ عذر فِي أن يقول:

أفيقوا أفيقوا يـــا غُــوَاةُ فإنَّمـــا
دياناتُكم مكـــرٌ مـــن القدمــــاء

هَذَا يؤكّد أنه غير متديِّن، فضلاً عن "الاجتهاد فِي التديُّن" الَّذِي يدّعيه، أيّ كافر! ولكنه يُحتمل أَيْضًا أنه يكفر بالأديان ولكنه يؤمن بالله! ويُحتمل أخيرًا أنــه غير متديِّن وغير مؤمن...

فما الصحيح؟!

المعروف أن ماركس قال عن منهج هيجل الديالكتيكى: "لقد كان الهرم مقلوبًا فعدلته"... أي كان يقف على قمّته فأعاد قلبه ليقف على قاعدته. وإنه قصد بذَلكَ إِلَى أن منهجه الديالكتيكى هُوَ معكوس منهج هيجل، وهو نفس المنهج ولكنه نقيضه فِى وقت واحد؟ والمعروف أن منهج هيجل منهج مثالىّ، وهو مثالىّ لأنه يبدأ من نقطة انطلاق هِىَ أسبقية "الفكر" على "الوجود". وتترتب على نقطة الانطلاق هَذِهِ نتائجُ لاَ حصرَ لَهَا فِى الفكر وفِى الوجودَين الطبيعىّ والاجتماعىّ. والمهم بالنسبة إلينا هنا أن أسبقيّة الفكر على الوجود تعنى حتمية وجود "عقل" فوق هَذَا الكون، هُوَ العقل الأكبر، هُوَ الله!

فإذا جاء ماركس وقلب هَذَا المنهج، أو إذا كان الهرم بِهَذَا الشكل واقفًا على قمّته وقلب ماركس الهرم المقلوب، فان معنى هَذَا أن منهج ماركس منهج مادّىٌّ، وهو مادّىٌّ لأنه يبدأ من نقطة انطلاق أخرى أو مناقضة تَمَامًا لنقطة انطلاق هيجل، ألاَ وهى أسبقيَّة الوجود على الفكر. وعلى هَذِهِ النقطة بدورها تترتب نتائج أُخْرَى مغايرة ومناقضة لنتائج منهج هيجل فِى الفكر وفِى الوجودَين الطبيعىّ والاجتماعىّ، والمهمّ بالنسبة إِلينا هنا -أيْضًا- أن أسبقية الوجود على الفكر تعنى عدم إمكان وجود "عقل" فوق هَذَا الكون، عقل أكبر، هُوَ الله!

كلّ المذاهب الفلسفيّة منذ كانت هناك فَلْسَفَة وتفلسُف وفَلاَسِفَة تنقسم إِلى هذين المعسكرين المتضادَّين دَائمًا، إِلى مثاليَّة ومادّيَّة، وذَلِكَ وفقًا لنقطة الانطلاق، أسبقية الفكر على الوجود أم أسبقية الوجود على الفكر؟

وهناك مذاهب فرعية تقف موقفًا توفيقيًّا بينهما، فتقول بوحدة الوجود-الفكر، أو وحدة الفكر-الوجود. وهَذِهِ بدورها تقف فِى النهاية إِلى جانب أحد

المعسكرين: المثالىّ أو المادىّ، مهما ادّعى بعضها حياده التامّ بين المعسكرين وأنكر نسبته إلى أحدهما.

والآن، أين يقف أَبُو الْعَلاَءِ؟! ومن أين ينطلق؟ أمِنَ الموقف المثالىّ أم المـادّىّ أم التوفيقىّ؟! من أسبقية الفكر على الوجود أم أسبقية الوجود على الفكر أم وحدة "الوجود-الفكر" "الفكر-الوجود"؟

إن عقلانية الرجل الّتِى لاَ حدّ لَهَا لاَ تقبل إمكان وجود عقل فـوق هَـذَا الوجود. وهَذَا مَا تدلّل عليه ألوف الشواهد من أقواله النَّثرِيَّة والشِّعرِيَّة! ولكن إيمانَ الرجل الّذِى لاَ حدّ لَهُ لاَ يقبل إمكان وجودِ "وجودٍ" دون وجودِ "عقلٍ" من فوقه! وهَذَا أَيْضًا مَا تُدلّل عليه ألوف الشواهد من أقواله النَّثرِيَّة والشِّعرِيَّة!

هنا نقف لحظات أمام ثلاثة أبيات لأَبِى الْعَلاَءِ حدث بالنسبة إليها لبس كبير بالنسبة إلى القدماء والمحدَثين! فهِىَ تُساق كحُجّة قوية على إلحاد الرجل، وتُـساق كحُجّة قوية أَيْضًا على شدّة إيمانه:

قلتم: لنا خالـق حكيـمٌ	قلنا: صدقتـم كذا نقولُ
زعمتمـوه بـلا مكـان	ولا زمـانٍ، ألا فقولـوا
هَـذَا كـلام لَهُ خبِـىء	معنـاه: ليست لنا عقول

والمعسكران المختلفان يحتجّان معًا وفِى وقت واحد بِهَذِهِ الأبيات الثلاثـة! فهى تعنى أن أَبَا الْعَلاَءِ يقول بأن لله مكانًا وزمانًا وينكر على مخالفيـه أن يقولـوا عكس ذَلِكَ، بأنه خارج كل مكان وكل زمان!

ولكن تصوُّر إله لَهُ زمان ومكان لاَ يمكن أن يكون اعترافًا بوجود إله، بـل هُوَ يُلغِى وجوده ويُلغِى ضرورته للوجود، أى للمكان والزمان! مـن هنـا كـان المعسكر الّذِى يقول بإلحاد الرجل وكفره وزندقته على حقٍّ تَمَامًا فى مـا يـذهب

إِليه، لأن مَا هُوَ داخل الزمان والمكان لاَ يمكنه أن يكون هُوَ نفسه هُوَ خالق الزمان والمكان، العقل الأكبر، الله! ثم لاَ يمكن تصوُّر أنه داخل المكان والزمان وخارجهما فِي نفس الوقت!

والآن دعونا نقرأ الأبيات الثلاثة السابقة مرة ثانية على التالى:

"قلتم: لنا خالق حكيم

قلنا: صحيح، كذا نقول، ذَلِكَم، لنا خالق حكيم...

زعمتموه بلا مكان ولا زمان! الضمير هنا يعود على مَن؟! زعموا مـــن؟! زعمتم خالقكم! أما خالقنا فليس لَهُ مكان أو زمان".

أى أن الحديث يجرى هنا عن إلهين لاَ عن إله واحد. عن إِلههم، وعن إِلـــه أَبِى الْعَلاَءِ. أما إِلههم فله مكان وله زمان، وهَذَا مَا يعلمه أَبُو الْعَلاَءِ. وأما إله أَبِـــى الْعَلاَءِ فليس لَهُ مكان ولا زمان لأنه خالق المكان والزمان وخارجهما. إِذن حدث اللبس لأن الظنّ تبادر إِلى أن أَبَا الْعَلاَءِ يتحدث عن إِلهين، لاَ عن إِله واحد، إِنهـــا على ذاتها "لَكُمْ دِيْنُكُمْ وَلِيَ دِينِ" الواردة فِي القرآن. والدِّين هنا ليس الدين بالمعنى الحرفِىّ وإِنَّما بمعنى الإيمان!

ولكن مَن الذين يخاطبهم أَبُو الْعَلاَءِ؟!

إِنهم أولئك الذين لاَ دين لهم، لاَ إِيمان، لاَ إِله؟!

ولكن كيف يكونون كذَلِكَ ثم يظلّ لهم خالق حكيم؟ أى إِله؟ أى ديـــن؟ أى إِيمان؟!

انظروا إِلى مدى التناقض؟!

فهل معنى هَذَا ان أَبَا الْعَلاَءِ يقول بإلهين، أو بتعدد الآلهة، لكم إله ولي إله آخر والسلام؟! إن معنى هَذَا أن الرجل كان وثنيًا، لاَ ملحدًا ولا زنديقًا ولا كافرًا فحسب، وهَذَا أكثر بشاعة وأكثر تناقضًا وأكثر مبعثًا للحيرة!

أم أنهم هم الوثنيُّون الذين يعبدون إلهًا لَهُ زمان ومكان، وإن زعموا أنه بلا زمان ومكان؟!

فمن هؤلاء الوثنيون؟! وما إلههم؟! هَذَا مَا يبدو أن أَبَا الْعَلاَءِ على علم تامٌ به! على علم بخبيء كلامهم ومزاعمهم، ولو صدّق مزاعمهم أو صدّقناها نحن لكان معنى هَذَا فعلا أن "ليست لنا عقول"... ولكن لنا عقولاً بلا شكّ، ويعني هَذَا أننا لاَ يمكن أن نصدّق تلك المزاعم ولو اتخذت شكل الإيمان بإله خارج المكان والزمان. لأننا نعلم خبيء تلك المزاعم، نعلم أنها معكوس مَا تقولون.

أمّا مَن هم، ومن إلههم، فليست هَذِهِ مهمّتنا الآن. أَبُو الْعَلاَءِ -كما سنرى فِي مكان آخر- قَد كشفهم وكشف إلههم وخبيئهم بِمَا كان يجب أن لاَ يدع مجالاً للحيرة أمام معاصريه واللاحقين بهِ... أمّا القدماء والمحدَثون والمعاصرون فلو قرأوا الرجل جيدًا ومرارًا وفهموه على الوجه الصحيح! ولكن، مَا الحيلة فِي عمى البصر، وما الحيلة فِي حسن النيّة أو سوء النيّة الّذِي ترتب عليه الافتراء على الرجل منذ أكثر من ألف عام؟!

إن عقل أَبِي الْعَلاَءِ لاَ يمكن -بطبيعته- أن يقبل بأسبقية الوجود على الفكر، إذ لاَ بُدَّ أن يكون هناك خالق حكيم:

عَجَبِي للطبيبِ يُلحِدُ فِي الخالق
... من بعدِ دَرْسِهِ التَّشريحَا!

نعم إن كلّ شيء فِي هَذَا "الوجود" يُثبت ويؤكّد أن وراء هَذَا الوجود عقلاً أكبر من أن يُحيط بِهِ العقل الإنسانِي. هُوَ عقل موجِد، خالق للوجود. إن الوجود فِي حاجة إِلى "شيء" يفسّره! فِي حاجة إِلى عِلّة أو إِلى سبب أوّل، إِلى عقل أكبر، إِلى إله.

ولكن عقل أَبِي الْعَلاَءِ من ناحية مقابلة وبطبيعته أَيْضًا لاَ يمكن أن يقبل بأسبقية الفكر على الوجود، لأن هَذَا الفكر يحتاج بدوره إِلى وجود سابق عليه. نعم إِن العقل والمنطق -الإنسانيّين- يثبتان ويؤكّدان ويحتّمان أن يكون وراء هَذَا العقل الأكبر وجود أكبر من أن يُحيط بِهِ العقل الإنسانِي! هُوَ وجود موجِد للعقل، إِن الوجود فِي حاجة إِلى "شيء" يفسره، فِي حاجة إِلى علة أو إِلى سبب أول،! وهكذا سيستمر الدور إِلى مَا لاَ نهاية!

وفِي الحالتين هُوَ أَمام طريق مسدودة، أو دائرة مغلقة!

هل يسبق الفكر الوجود؟! هَذَا مستحيل عقلاً...

هل يسبق الوجود الفكر؟! هَذَا أَيْضًا مستحيل عقلاً...

هل الاثنان شيء واحد؟! هَذَا ثالث المستحيلات...

هل ثمة شيء يتجاوز الوجود والفكر معًا؟! هَذَا رابع المستحيلات، فضلاً عن أن هَذَا التجاوز المستحيل لو أمكن -فرضًا- لكان معناه حتمية أسبقية الفكر على الوجود، وفِي نفس الوقت أسبقية الوجود على الفكر. وهَذَا خلف، أو دور، أو سباق فِي طريق مسدودة، أو سقوط فِي دائرة مغلقة، أو مجرَّد هذيان!

والحقّ أن العقل الإنسانِيّ إِذا تجاوز نفسه فرضيًا إِنَّمَا يكون قَد ألغى وجوده، لأن حتميَّة وجود العقل هِيَ نفسها حتميَّة وجود الوجود. وهو إِذا تجاوز وجوده فإنما يكون قَد ألغى نفسه، لأن حتميَّة الوجود هِيَ نفسها حتميَّة وجود العقل!

لم يعُد هناك غير الفرار من العقل ومن الوجود معًا:

وهل يأبَقُ الإنسانُ من مُلْكِ ربِّـــه
فيخرج من أرض لَهُ وسمـــــاءِ؟!

إن هَذَا هُوَ خامس المستحيلات!

حيرة، بل الجحيم بعينه، وخصوصًا بالنسبة إلى عقل كعقل أبِي الْعَلاَءِ!

لم يبقَ أمام أبِي الْعَلاَءِ إلاّ التمرُّد، على الفكر وعلى الوجـــود معًـــا، علـــى الأسبقية الحتمية -عقلاً- للفكر، والأسبقية الحتمية -عقلاً- للوجود، على المثاليّـــة وعلى المادية فِي وقت واحد، وإن لم يكونا معروفين بِهَذَا المصطلح على عهده فِي القرن الرابع الهجرى! ولكن إلاَمَ يُفضى هَذَا التمرُّد؟ وما معناه؟ وكيف يمكـــن أن يكون؟! لم يبقَ إلاّ أن يكون هُوَ نفسه "العقل"... وهو نفسه "الوجود"... وهـــو نفسه الَّذِى يتجاوز العقل والوجود، هُوَ اللهُ!

وأشهد أنّـــى بالقـــضاء حللتـــها
وأرحل عَنْهَـــا خائفًـــا أتَألّـــــه

قَد يتبادر إِلى الذهن هنا أن الرجل يوشك أن يدَّعى الأُلُوهيَّة وأنـــه فقـــط يخشى مغبّة الادِّعاء، خصوصًا وأن قتل المتنبِّى ليس عَنْهُ ببعيد، وأكثر خصوصًا أنه كثيرًا مَا سجّل بالغ حبه للمتنبِّى وبالغ إعجابه بِهِ، وكثيرًا مَا استشهد بأقوَالـــه، ثم هُوَ مُحيط كلَّ الإحاطة بأخبار من سلفه من المتنبِّين والمتألِّهين -كما عدّدهم فـــى رسالة الْغُفْرَان- ويعلم جيدًا المصائر الغامضة الَّتِى انتهوا إِليها. ثم إِذا كان هَذَا مَـــا لَقيَه المتنبِّى -مثلاً- من مصير السجن ثم القتل، فما عساه يكون مـــصيره هُـــوَ إذا ادّعى الأُلُوهيَّة؟! هُوَ شديد الاحتياط لنفسه مفرط فِي الحذر وأذكى من أن يـــسلّم

نفسه هكذا بكل بساطة إلى "أعدائه"!! ثم إن البيت السالف يثبت أن الرجل لَمْ يَكُن ملحدًا ولا زنديقًا ولا وثنيًّا ولا مؤمنًا ولا شيئًا البتة من هَذَا القبيل، وَإِنَّمَا كان -بكل بساطة- مجنونًا... وقصارى القول فِيهِ أنه مجنون والسلام! ولكن كيف يتورط فِي هَذَا الجنون هُوَ الَّذِى سَخِرَ من جميع المتنبئين والمتألّهين، بِمَا فِي ذَلِكَ المتنبِّي، فِي رسالة الْغُفْرَان، وأدانهم جميعا بقسوة واتهمهم بالجنون؟!

ليس الجحيم إِذن هُوَ الَّذِى يعتمل فِي عقل ووجدان أَبِى الْعَلاَء، وهو شاعر فَيْلَسُوف وفَيْلَسُوف شاعر، وإنَّما مَا هُوَ ألعنُ من الجحيم، فهل ثَمَّة ألعن من الجحيم؟!

لم يعُد أمامه سوى الموت، لذَلِكَ فكّر فِي الموت كثيرًا وطويلاً ومرارًا، وما أكثر مَا تَمنَّاه:

من باعني بحياتي ميتة سُرُحًا
بايعتُه، وأهان الله من ندما

ولكنه هُوَ نفسه الَّذِى يقول أَيْضًا:

ونَومِيَ موتٌ قريب النشور
وموتِيَ نومٌ طويل الكرى

أى أنه يؤمن بأن ثمة حياةً أُخرَى! وما دامت هناك حياة أُخرَى فمعنى هَذَا أنه مؤمن بأن ثمة إِلَهًا! فالمصيبة أن تمنِّى الموت هُوَ دليل على الإيمان بالله بقدر مَا هُوَ دليل على الكفر بالله، [فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ].

وفرق كبير بين أن تتمنَّى الموت لكى لاَ تطالع وجه الله وأن تتمناه لكى "تأبق" أو تفرّ من أرضه وسمائه! فِي الحالة الأولى هُوَ الشوقُ والحبُّ والرضا

والطُّمَأْنِينَة، أمّا فِي الحالة الثانية فهو الضيق والكفر والتمرُّد على إرادة الله: [قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ]... وقد رأينا كيف أنه يعاني فِي الحالة الثانية، القنوط!

لذَلِكَ فكّر كثيرًا وطويلاً فِي الانتحار، وذكر ذَلِكَ فِي رسالة الْغُفْرَان: "... قَد كدت ألحق برهط العدم، من غير الأسف ولا الندم، ولكنما أرهب قدومي على الجبار، ولم أصلح نخلي بإبار. وقيل لبعض الحكماء: إن فلانًا تلطّف حَتَّى قتل نفسه، وكره أن يمارس بدائع الشرور، وأحبّ النقلة إِلى منازل السرور. فقال الحكيم قولاً معناه: أخطأ ذَلِكَ الشابُّ المقتبل، هلاّ صَبَر على صروف الزمان، فإنه لاَ يشعر علامَ يُقدِم!!".

هَذَا الاعتراف لاَ يدع مجالاً للشك فِي أن الرجل مؤمن بالله ويرهب قدومه عليه بغير عمل صالح. أي أنه لَمْ يَكُن ملحدًا ولا زنديقًا ولا كافرًا ولا وثنيًّا، ويعني أَيْضًا أنه لَمْ يَكُن مجنونًا كما أضفنا منذ قليل! ثم هُوَ هناك "خائفٌ" أن يتألّه! فهل كان خائفًا -فقط- من مصير المتنبِّئين والمتألِّهين كما ظننَّا، أم كان خائفًا من -أساسًا- قدومه على الله مدَّعيًا الأُلُوهِيَّة؟! وإذا كان يخشى الله فكيف يدَّعِي الأُلُوهِيَّة؟! وإذا كان يدَّعي الأُلُوهِيَّة فكيف يخشى الله؟!

إِنَّها لعنة، وليست مجرَّد جحيم!

ولكن الرجل يستشهد فِي رسالة الْغُفْرَان بقول الضبِّي:

ولقد علمت بأن قبري حفرة
مَا بعدها خوف علي ولا ندم

الموت إِذن يضع حدًّا للخوف؟!

ألأنّ الموت نهاية كل شيء؟! إن معنى هَذَا أنه لاَ يؤمن بالبعث ولا الخلود فِي حياة أُخْرَى، وبالتالى لاَ يؤمن بالله، فكيف يستقيم هَذَا -منطقيًّا- مع خوفه من القدوم على الجبار فيما لو انتحر أو مع خوفه من الناس، والله فيما لو ادّعى الأُلوهيَّة؟! ثم كيف يستقيم هَذَا مع قوله هُوَ نفسه:

خُلِق الناس للبقاء فضلّت
أُمّة يَحسَبونهم للنفاد

إن هَذَا يعنى أنه يؤمن بالبعث والخلود فِي حياة أُخْرَى، وبالتالى يؤمن بالله! ويُدين من لاَ يؤمنون بِمَا يؤمن بِهِ، بالضلال!

انظروا إِلى الأرجوحة المترددة بين الجحيم والجحيم، بين اللعنة واللعنة، بين النقيض ونقيض النقيض؟! فهل كتب مَا كتب لكى يضعنا على كفّ هَذِهِ الأرجوحة؟! إنه يعبث، يعبث بنفسه وبنا وبكل شيء، وبالوجود والفكر على السواء! ولا يفعل هَذَا إِلاّ مجنونٌ، نعم، إِنها هستيريا، حُمَّى لعينة، لاَ عقل ولا فكر ولا فَلْسَفَة ولا منهج ولا مذهب ولا شيء على الإطلاق، هذيان فِي هذيان ليس غير! خصوصًا وهو القائل:

أرى هذيانًا طال فِي كل أمة
يضمّنه إيجازها وشروحُها

إِذن كل مَا قاله الأوَّلون، وكل مَا قاله هُوَ أو سيقوله اللاحقون بِهِ، مجرَّد هذيان لاَ معنى لَهُ ولا غاية ولا جدوى منه، باطل الأباطيل، الكل باطل...

فهل كان الرجل عدميًّا؟!

هناك ألوف الأدلة أَيْضًا على أنه كان كذَلِكَ، وألوف أُخْرَى -مثلها- على أنه لَمْ يَكُن كذَلِكَ! إنه يصبح بذَلِكَ فِي نظرنا مجنونًا، مجنونًا والسلام! فإذا عـدنا إِلى رسالة الْغُفْرَان وجدنا الرجل يقول: "والتألُّه موجود فِي الغرائز، ويلقنُ الطفـل الناشئ مَا سمعه من الأكابر، فيلبث معه فِي الدهر الغابر، والذين يـسكنون فِـي الصوامع، والمتعبدون فِي الجوامع، يأخذون مَا هم عليه كنقل الخبر عن المُخـبر، لاَ يميِّزون الصدق من الكذب لدى المعبِّر، فلو أن بعضهم ألفَى الأسرة مـن المجـوس لخرج مجوسيًّا، وإذا المعقول جُعل هاديًا، نقع بِريِّه صاديًا، ولكن أين من يصبر على أحكام العقل؟ هيهات!".

هل معنى هَذَا أن التألُّه غريزة؟!

إذن فأَبُو الْعَلاَءِ لم يتبع إِلاّ غريزته حين أوشك أن يدعى الأُلُوهِيَّة، فالأُلُوهِيَّة هنا ليست مُدَّعاة! الرجل إِذن طبيعيٌّ وعاقل ومنطقيٌّ مع الطبيعة، وليس مجنونًا...

وهكذا عدنا إِلى الناحية المقابلة أو المضادّة من حركة الأرجوحة! أم يعـنى أَبُو الْعَلاَءِ أن "التألُّه" أمر يلقّنه الكبار للطفل فيلبث معه ويشيب عليه؟!

إِذن كيف يكون موجودًا "فِي الغرائز"؟! ثم هَذَا التـأرجح المـستمرّ مـن النقيض إِلى النقيض، ومن الجنون إِلى غاية العقلانية وقمّة العبقرية، أليس فِي حـدّ ذاته جنونًا وعبثًا وهذيانًا وعدميّة وحُمًّى جهنمية يبدو أن لاَ نِهَاية لَهَا ولا شـفاء ولا نجاة منْهَا ولا جدوى على الإطلاق ولا علاقة لَهَا بالوجود ولا الفكر ولا بأى شيء؟! مهلاً، كأنك لاَ تستطيع مع أَبِى الْعَلاَءِ صبرًا...

و لم يستطيع الصبر معه القدماء والمحدّثون والمعاصرون! فصبرٌ جميل!

إِن كلمة التألُّه لاَ تعني فقط -من الناحية المعجمية- "ادّعـاء الأُلُوهِيَّـة"... وإنّما تعني أَيْضًا "التوحيد"! والرجل يقصد أن التوحيد غريزة فِي الطفل وأن مَـا

يُلَقِّنُه من الكبار هُوَ الَّذى يقطع الطريق على هَذِهِ الغريزة ويصرف الطفل عن طريق الإيمان! لاَ أن "ادّعاء الأُلوهِيَّة" غريزة فِي الطفل يُلَقِّنُها عن الكبار، فالتلقين ينفِي إمكان أن يكون ادِّعَاء الأُلوهِيَّة "غريزة"! نعم إِن فينا نزوعًا فطريًّا وغريزيًّا وعفويًّا وتلقائيًّا إِلى الله، لأننا فِي حاجة إِليه، ولأن الوجود والفكر معًا فِي حاجة إِليه. أما إِدراكه والإحاطة بِهِ وتجاوزه فَمِمَّا لاَ قِبَل للعقل الإنسانى بِهِ. والعقل الإنسانى عاجز عجزًا مطلَقًا عن هَذَا بحكم محدوديته. إِنه لاَ يستطيع أن يتجاوز نفسه، ولكنه قادر أَيْضًا قدرة مطلقة لأنه يستطيع أن يتجاوز نفسه! إِنه لاَ يستطيع أن يجعل من نفسه موضوعًا للإدراك، هَذَا حقّ. ولكنه يستطيع أن يجعل من كل شىء فِى الوجود موضوعًا للإدراك أو لإمكان الإدراك!

ولِهَذَا تجاوز أَبُو الْعَلاَءِ نفسَه، ولم يتجاوزها فِي وقت واحد! وتجاوز الديالكتيك المثالى والمادِّى معًا، ولم يتجاوزهما فِي وقت واحد! وهَذَا هُوَ الديالكتيك ذاته، وهو ديالكتيك أَبِى الْعَلاَءِ. ويجب أن نبحث عَنْهُ فِى التركيبة العقلية والنفسية للرجل، لأن الديالكتيك هُوَ غريزة الغرائز فِي هَذِهِ التركيبة النادرة والمستقرّة والمتميزة والعبقرية! إِنه يضادّ بين النقائض ويوحّد بينها ويبادل بعضها ببعض ويوفق بينها، ثم يخرج من هَذَا بمحصِّلة يخرج بعدها بنقيض المحصِّلة إِلى نقيض النقيض، وهكذا إِلى ما لاَ نهاية! ولا يمكن فهم الرجل دون فهم الديالكتيك العلائىّ هَذَا المتميز عن جميع المذاهب المثالية والمادية جميعًا، وعلى مدى تاريخ الفكر الإنسانى منذ أقدم العصور حَتَّى وقتنا الحاضر.

أَبُو الْعَلاَءِ إِذن هُوَ صاحب المنهج الجدلىّ ومؤسِّسه، لاَ هيجل ولا ماركس ولا أحد من قبل ولا من بعد! من هنا صار هُوَ كما صيّر الآخرين! لأن مَا كان يعتمل بداخله أشبه بِمَا يعتمل بجوف الشمس، انفجارات وانقسامات واتحادات

ذرِّيَّة تخرج مِنْهَا انفجارات وانقسامات واتحادات أُخْرَى، وهكذا إلى مَا لاَ نهايـــة! من ثم أجبره عقله ذاته -وللمره الأولى والأخيرة- على أن يترل على العقل أمـــام جميع المستحيلات العقلية والمنطقية فيتورط فِي المغامرة والمساومة والتنـــازل، بـــل والاستسلام التامّ، فيقول:

قال المنجم والطبيب كلاهمـــــا:
لاَ تُحشرُ الأجسادُ. قلت: إليكما
إِن صحّ قولكما فلست بخاســـــر
أو صحّ قولى فالْخَسَـــار عليكما

إنه التورُّط الملحمىّ، والبطولى، والتراجيدى فِى نفس الوقت، إنها سيمفونية ناجحة حقًّا، ولكنها نبيلة ورائعة وشجيَّة ومثيرة للإعجاب وباعثة على الفرح، بل نشيد الإنشاء الجديد لمجد العقل الإنسانىّ، فلا نامت أعين الجهلاء!!

نعم يا أَبَا الْعَلاَءِ:

- تَفَكَّر فقـــد حـــارَ هَـــذَا الدليـــلُ   وما يكشف النهج غير الفِكَـــرْ
- فكّروا فِى الأمور يُكشفْ لكم بعـــ   ـــضُ الّـــذِى تجهلون بالتفكيرِ

* * *

المقالة الرابعة

الفكر والشعر فِي مَنْظُور أبِي الْعَلاَءِ الْمَعَرِّيّ

وأسروا على الخيل العتاق وأصْمِتُوا نواطقَها أن لاَ تُحَمْحِمَ هائب

وشُدّ لسانَ الطرْف خوفَ صهيله فقد ألجموا أفواهها بالسبائب!

أَبُو الْعَلاَءِ

لأَبِي الْعَلاَءِ كلامٌ فِي "الخيول" أكثر مِمَّا قاله المتنبِّى وأبو تَمّام وغيرهما إِلى الملك الضليل امرئ القيس! وبخاصة فِي مقدّمتَى ديوانَيه "سقط الزند" و"لزوم مَا لاَ يلزم"... وهو يرتّب مراتب الخيول على بحور وأوزان وقوافِى الشعر العربِى! فلَمْ يَكُن الرجل، وفِى "لزوم مالا يلزم" بالذات، مَعْنِيًّا بترتيب أوزان وقوافِى الشعر الْعَرَبِىّ بقدر مَا كان مَعْنِيًّا بتصنيف وتصفيف "الخيول العَرَبِيَّة"، أى الفرسان العرب من أنصاره ومريديه وأعضاء حزبه الباطنِىّ السرّىّ الّذِى تفرغ لَهُ فِى منفاه الاختيارى "المَعَرّة"... بعد أن رفض جميع الأحزاب والمذاهب والاتجاهات والحركات السرّيّة والعلنيّة، ولذَلِكَ راح يقول بالرمز وبالمصطلحات الشرطيّة: "أمَّا بعد، فإِن الشعراء كأفراس تتابعن فِي مدى (غاية)... مَا قصر مِنْهَا سُبق، وما وقف لِيمَ ولُحق".

ويقول صاحب "شرح الندّ على سقط الزند" إنه شبه حال الشعراء فِى المُشَاعَرَة والمباراة فِى إِنشاء الشعر بِخَيْلٍ أُرسلت فِى حلبة السباق، متتابعة بعضها

فِي أثر بعض، متوجهة إِلى غاية نُصبت لَهَا وقد اختلفت مناصبها، فهو المجليّ وهو السابق الحائز قصب السبق.

واضح أن أَبَا الْعَلاَءِ وأن الشارح لسقط الزند لاَ يتحدثان عن الشعر وعـــن الخيول بِمَا هِيَ، وَإِنَّمَا يتحدثان عَنْهَا حديثًا رمزيًّا اصطلاحيًّا شرطيًّا شفريًّا يقصدان بِهِ فِي الظاهر أشياء وفِي الباطن أشياء أُخْرَى هِيَ -أي مَا هُوَ فِي الباطن- التنظيم والتشكيل والتجميد والحشد على مراتب ودرجات وفئات لحزب أو لحركة سرّيّة باطنيّة بديلة للحركات الباطنية الَّتِي كانت سائدة فِي القرن الرابع الهجريّ وفى ما قبله وفى ما بعده حَتَّى كتابة هَذِهِ السطور.

* * *

لِمَاذَا الهجوم؟

إِذن مَاذَا عسانا أن نبغى عند أَبِي الْعَلاَءِ غير اللُّغة والنَّحْو وهُوَ المُتَّهَم منـــذ أكثر من ألف عام بأنه مَلِكُ التَّشدُّق باللُّغة وبالنَّحْو من قِبَل اللُّغويِّين والنَّحْـــويِّين؟ هَذَا مَا يلفت الرجل نظرنا إِليه ويحذرنا منه، خصوصًا وأنه قَد أضاف فِي مقدِّمـــة اللزوميات -فى ما أذكر- أنه كتب اللزوميات على مُعْجَم الْعَامَّة لاَ على مُعْجَـــم العلماء، مِمَّا يوحى بأن لأَبِي الْعَلاَءِ معجمًا خاصًّا شرطيًّا ورمزيًّا واصطلاحيًّا وهو مُعْجَم العلماء، ومِمَّا يوحى فِي نفس الوقت بأن الرجل لاَ يقصد مَا يقولـــه فِـــي الظاهر وَإِنَّمَا يقصد العكس، والعكس تَمَامًا. إِن الرجل يقول:

وَلِحَبْرِ اليَهُودِ فِى دَرْسِهِ التَّوْ رَاةَ فَنٌّ والْهَمُّ فِى التَّدْبِيلِ

فهو يدعوك بِهَذَا إِلى أن يكون لك أَيْضًا فنّ فِي دراسة تراثك وتراث أعدائك والتُّرَاث الإِنْسَانِى كله بِمَا فِيهِ تراث أَبِى الْعَلاَءِ نفسه، أو أن تكتشف "الفن" الَّذِى يدرس بِهِ الآخرون أىّ تراث. الرجل إِذن يعطيك سرّه حين يعطيك سرّ الآخرين، ويعطيك المفتاح إِلى عالَمه الشِّفْرِىِّ السِّرِّىِّ الباطنِىِّ، كما أن؟؟؟ عوالم الآخرين منذ أقدم العصور حَتَّى مَا بعد أَبِى الْعَلاَءِ بأكثر من ألف عام!!

لاَ بُدَّ أن يكون القُرّاء قَد وقفوا طويلاً أو قصيرًا أمام هجوم ياقوت على أَبِى الْعَلاَءِ واتّهامه لَهُ -هُوَ المفترَى عليه- بالتَّشدُّق باللُّغة، وهو أول من تبرَّأ من هَـذِهِ التهمة بلسانه الصريح المباشر تاراتٍ وبلسانه الباطنىّ غير المباشر تارات أُخْرَى!

ولا يمكن أن نتصور أن ياقوتَ لم يفهم أَبَا الْعَلاَءِ و لم يَعِ قاموسه السِّرِّىَّ! إِذن لِمَاذَا كان الهجوم، واضح أن ذَلِكَ كان على سبيل التنكُّر والحيطة والتحفظ والحذر، إِذ من الواضح أن السيوف الَّتِى كانت مُشرَعة على رقبة أَبِى الْعَلاَءِ كان يمكن أن تُشهَر على رقبة كلّ من يتعاطف مع أَبِى الْعَلاَءِ أو يبدى بادرة من تعاطُف، لذَلِكَ لاَ نرى هجوم ياقوت على أَبِى الْعَلاَءِ إِلاّ فِى ضوء الظاهر والباطن أَيْضًا، نزولاً على قول أَبِى الْعَلاَءِ نفسه:

وَدَهَاكَ مَنْ أَمْسَى لِذِكْرِكَ شَاهِرا

* * *

حوار مع أَبِى الْعَلاَءِ

أنا: مَا الروىُّ يا أَبَا الْعَلاَءِ؟!

هُوَ: فأمّا الروىُّ فأثبتُ حروف البيت، وعليه تُبنَى المنظومات. وهو يكون من أى

حرُوف المعجم وقع إلاّ حروفًا تضعفُ ولا تثبتُ، كألف الترنُّم، وواوه، ويائه، وهاء الوقف، وهاءات التأنيث إذا كان مَا قبلها متحركًا، والألفُ الَّتِي تلحق علمًا للتثنية فِي مثل ضربا وذهبا، والواو الَّتِي تدلّ على الجمع إذا كان مضمومًا مَا قبلها فِي مثال ضربوا وقتلوا، وغير ذَلِكَ من الحروف، فإن اتفق غير مَا ذكرتُ فهو شاذٌّ مرفوض!

أنا: إنِي لم أفهم شيئًا مِمَّا قلت، وسأدَعُ هَذَا لِمَن قَد يفهمون فِي العروض والقافية والرويّ أكثر مِمَّا أفهم.

لاَ تعرفُ الوزنَ كَفِّي بل غَدَتْ أُذُنِي
وزَّانةً، ولِبَعضِ القولِ ميــــــــزانُ

ولكنى أسألك لِمَاذَا استهللت مقدمتك لِلُزُومِ مَا لاَ يلزم بقول الشاعر:

وَلَقَّاكِ الْعُقُوقَ مِنَ الْبَنِينَــا

ثم أتساءل لِمَاذَا ضربت أول مثل بـــ"ضربا وذهبا" وثانى مثل بـــ"ضربوا وقتلوا"؟! إنك تضرب مثالاً "للخروج" بقول الشاعر القديم:

فِي ليلــة لاَ نــرى بِهَــا أحــدا
يَحكـــى علينـــا إلاّ كواكبُهـــا

الخروج إذن يعنى الوعد والموعد والرجعة والظهور إلى العلن بعد الكمون الباطنى الطويل، وبعد الثقة المطلقة فِي إمكانية النصر، وبعد أن تُعِدُّوا لهم مَا استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون بِهِ عدوَّ الله وعدوَّكم، فِي ظل الصمت المقدَّس المتربص وفِي ظل السكون المتحرك والتحرُّك الساكن!!

قل لى مَاذَا عن "التأسيس"؟!

هُوَ: والتأسيس كقول القائل:

أَلاَ يا ديارَ الحيِّ بالأخضرِ اسْلَمِي

وليس على الأيامِ والدهر سالـــمُ

أنا: قُل لى بِمَ تستشهد أَقُلْ لك من أنت! أتراها مجرَّد أبيات عابرة على الخاطر بعد الضرب والقتل وخيانة الأم والدعوة عليها بالعقوق من البنين والبنات، الأم الوطن، الأم الدار، الأم المغتصَبة الأسيرة، الأم المكتوفَة اليدين والرجلين...

هُوَ: أنت مباحثى!

أنا: نعم، ولكن فِى التُّرَاث ودفاعًا عن التُّرَاث، وبخاصة وأن شبابنا قَد زهد فِى التُّرَاث، وبخاصة وأن الهجوم قَد اشتد هَذِهِ الأيام بالذات على التُّرَاث تمهيدًا لسحب الأرض من تحت أقدامنا وجريًا على عادة الاستعمار الاستيطانىّ! اسرق تراث أى شعب تسرقْ ذاكرته، تسرقْ تاريخه، تسرقْ عقله، تسرقْ قدرته على التفكير فِى الحاضر والمستقبل، تسرقِ الأرض.

* * *

نص غريب

لَمْ يَكُن أَبو الْعَلاَءِ إذن مَعْنِيًّا -كما قلت- بالعَروض والقافية واللُّغة والنَّحْو، وَإِنَّمَا استخدم كل ذَلِكَ استخدامًا اصطلاحيًّا وشرطيًّا كان يفهمه عَنْهُ معاصـــروه ومريدوه وأنصاره بخاصّة! وعلى هَذَا الضوء تصبح مقدمة أَبِى الْعَلاَءِ لِلُزُومِ مَـــا لاَ يلزم أكثر خطورة وأَهَمِّـــيَّة من الديوان نفسه. وبتخطِّى جميـــع الاســـتشهادات العلائية من الشعر والشعراء فِى المقدِّمة المذكورة، وبترك هَذَا عمدًا إِلى فطنة القارئ

الذكيّ والمتواضع، نصل إِلى قول الرجل فِي نهاية المقدمة: "وقد كنتُ قلتُ فِي كلام لِي قديم: إِني رفضت الشعر رفض السقب (ولد الناقة إِذا ولدته وعُرف أنه ذكر) غرسه، والرأل (فرخ النعام) تريكته (البيضة)... والغرض مَا استُجيز فيه الكذب واستعين على نظامه بالشبهات. فأمّا الكائن عِظَةً للسامع، وإِيقاظًا للمتوسِّن، وأمرًا بالتحرُّز من الدنيا الخادعة وأهلها الذين جُبِلُوا على الغشّ والمكر، فهو إِن شاء الله مِمَّا يُلتمَّس بِهِ الثواب. وأضيف إِلى مَا سلف من الاعتذار أن من سلك فِي هَذَا الأسلوب ضعُف مَا ينطق بِهِ من النظام، لأنه يتوخى الصادقة، ويطلب من الكلام البرّة، ولذَلِكَ ضعف كثير من شعر أُمَيَّة ابن أبِي الصلت الثقفِي ومن أخذ بفريّه من أهل الإِسلام. ويُروى عن الأصمعى كلام معناه أن الشعر باب من أبواب الباطل، فإِذا أُريدَ بِهِ غير وجهه ضعُف، وقد وجدنا الشعراء توصَّلوا إِلى تحسين المنطق بالكذب وهو من القبائح. وزيَّنوا مَا نظموه بالغزل وصفة النساء ونعوت الخيل والإِبل وأوصاف الخمر. وتسببوا إِلى الجزالة بذكر الحرب. واحتلبوا أخلاق الفكر وهم أهل مقام وخفض فِي معنى مَا يدّعون أنهم يُعانون من حثّ الركائب، وقطع المفاوز، ومراس الشقاء"!!

انتهى نص أبِي الْعَلاَء. نَصٌّ غريب على كل الوجوه!

فهو يعنِي أن لأَبِي الْعَلاَء كلامًا ضاع فى ما ضاع أو سُرق أو خُبِّئَ من التُّرَاث الْعَرَبِيّ، ويعنى أن أَبَا الْعَلاَء لاَ يؤمن بأن أعذب الشعر أكذبه على عكس الخطأ الشائع فِي عصره وفِي كل العصور، ويعنى أن أَبَا الْعَلاَء يرفض شكل ومضمون القصيدة الْعَرَبِيَّة فيصبح منظِّرًا لحركة تجديد منشودة، ويعنى أن أَبَا الْعَلاَء يعترض على الشكليَّة وإِن لَمْ تَكُن "الشكليَّة" معروفة على عصره كمصطلح نَقْدِيّ

أو جمالىّ، ويعنى أن أَبَا الْعَلاَءِ لاَ يتحدث عن الشعر على إطلاق وإنَّما عن "الشكلىّ" منه، ويعنى أنه لاَ يفهم إمكانية التناقض بين القول والفعل وإنَّما تطابق القول مع السلوك والنظر مع الممارسة والقول مع العمل. أمَّا أن يكون الشاعر فارسًا بالقول خائنًا وجبانًا بالسلوك فهَذَا مَا لم يفهمه أَبُو الْعَلاَءِ وما لاَ يمكن لأَبِى الْعَلاَءِ أن يفهمه أو يتسامح فِيهِ أو يقبل فِيهِ المساومة والسمسرة والتجارة تحت السيوف المُشرَعة وفِى ظلال غابات المشانق الجاهزة، هُوَ الَّذِى عاش ومات مدلِّلاً بمَا لا يَدَعُ مجالاً للشكّ على حتميَّة وإلزامية التطابُق بين القول والعمل، أمَّا التَّارِيخ فحافلٌ بالفرسان الكَذَبَة، فرسان إذا مَا خلا الجبان بأرض!! ثم يعنى النَّصّ أن أَبَا الْعَلاَءِ يتمرد على بناء القصيدة العَرَبِيَّة التقليدىّ منذ العصر الجاهلىّ حَتَّى القرن الرابع الهجرىّ، ويعنى النَّصّ أن أَبَا الْعَلاَءِ يقف فِى صفّ "الواقعية" وإن لَمْ تَكُن أخذت اسمها هَذَا على عصره، ويقف إلى جانب "العقلانيَّة" فِى الشعر كما فِى كل شىء! ثم يدين الشعراء الكَذَبَة، وما كان أكثرهم مِمَّن يدَّعُون الفروسية ويحتلبون أخلاف الفكر ويزعمون أنهم يعانون من "حثّ الركائب وقطع المفاوز ومراس الشقاء"... وهم أبعد مَا يكونون عن الفروسية وعن الركائب وعن المفاوز وعن الشقاء مِمَّا عاناه وعايشه طويلا أَبُو الْعَلاَءِ الشهيد، مسيح القرن الرابع الهجرىّ وحسين القرن الرابع الهجرىّ. نعم، إنهم أولئك الشعراء، محض سماسرة وخونة ودسائس وتجار!!

لكن أغرب مَا فِى النَّصّ الغريب قول أَبِى الْعَلاَءِ بأن من سلك فِى الشعر أسلوب "الواقعيَّة" و"العقلانية" والصدق "ضعُف مَا ينطق بِهِ من النظام لأنه يتوخى الصادقة ويطلب من الكلام البرّة"... ولذَلِكَ ضعف كثير من شعر فلان وعلان.

معنى هَذَا أن الشعر يضعف إِذا غلب عليه الفكر، وأن الفكـــر يـــضعف إِذا غلب عليه الشعر! ومعنى هَذَا أن الشاعر يصبح أقلَّ شاعرية كلما كان أكبر فكرًا، ويصبح أكثر شاعرية كلما كان أقل فكرًا!!

* * *

الشعر والفكر

إِلى أية نتيجة يسوقنا أَبُو الْعَلاَءِ الشاعر الفَيْلَسُوف والفَيْلَسُوف الـــشاعر، إِلى التعارُض الحتميّ بين الشعر والفكر؟ إِلى القطيعة التامَّة بين الفكر والشعر؟! ومـــن الَّذِى يقول هَذَا؟! صاحب "سقط الزند"... الديوان الَّذِى لاَ يرقى إِلى قمّته ديوان شعريّ آخر فِى تاريخ الشعر الْعَرَبِىّ من حيث الشعر والشاعرية والفكر، لاَ أستثنى من ذَلِكَ ديوان المتنبِّى ولا ديوان أبي تَمَّام ولا ديوان أبي نواس! ثُمّ لِمَاذَا يا تُـــرَى رفض أَبُو الْعَلاَءِ الشعر –فِى كلام لَهُ قديم– "رفـــض الـــسقب غرســـه والـــرأل تريكته"... على حدّ تعبيره؟!

* * *

المصطلح السرى

إِذن مَا الحكاية بالضبط؟!

لَمْ يَكُن الرحل مَعْنِيًّا بالشعر والشاعرية أساسًا فِى لزوم مَا لاَ يلزم –المقدمة والديوان– بقدر مَا كان مَعْنِيًّا بالتفكير النظريّ وبـــالتخطيط والتـــدبير والتجنيـــد والحشد الوئيد الحذر الَّذِى يصطنع الشفرة ويصطنع الرموز ويخلق المصطلح السرى

للحركة الجديدة! ولَمْ يَكُن ممكنًا فِي عصر كعصر أَبِي الْعَلاَءِ أن يتمّ أى تحرُّك حقيقى على المستوى العلنى، فلَمْ يَكُن هناك مفر من التحرُّك على المستوى السِّرِّىّ الباطنىِّ الساكن، خصوصًا حين اختلطت "الاتجاهات" وتضاربت "المذاهب" وتخبطت "الطوائف":

سُكُونًا خلْتُ أَقْدَمَ مِنْ حَرَاك
فَكَيْفَ بِقَوْلِنَا حَدَثَ السُّكُونُ؟

هنا نعود إِلَى استشهاد أَبِي الْعَلاَءِ ببيت الشعر القديم السابق ذكره فِي مستهَلّ هَذَا الحديث:

فِي ليلة لاَ نرى بهَا أحدًا
يَحكى علينا إلاّ كواكبُها

لِهَذَا كان شاعرًا ومفكرًا من الطراز الأول فِي "سقط الزند"... وكان أقلّ شاعرية وأكثر فكرًا فِي "لزوم مَا لاَ يلزم"... ولكنه كان واعيًا بموقفه فِي الحالين.

أخيرا لاَ أدرى لِمَاذَا يمرُّ بذاكرتى الآن قول الشاعر الشيلى "نيكانور بارا":

"لعله يجدر بِي أن أعود إِلَى ذَلكَ الوادى...
إِلَى تلك الصخرة الَّتِي كانت فِي يوم من الأيام دارى...
وأبدأ فأنقش من جديد...
من النهاية حتَّى البداية...
العالَم، مقلوبًا ومعكوسًا"

رُبَّمَا لأنى تعبت! ورُبَّمَا لأننا نقول مَا نُعيد ونُعيد مَا نقول! ورُبَّمَا لأننا نعيش عصرًا "مشرقًا" إلى أبعد حدود "الإشراق"! لاَ كعصر أَبِى الْعَلاَءِ، ذَلِكَ العصر الضرير! ورُبَّمَا لأن أَبَا الْعَلاَءِ قال قديمًا:

ظلُّوا كدائرة تحوَّل بعضُها

مِن بعضِها فجميعُها معكوسُ

ثم يَرِدُ على خاطرى وأنا أكتب، كالعادة، على سجيَّتى قول الشاعرة الأمريكية "مارى. أ. إيفانز":

"عندما أموت...

أنا متأكدة...

أنه سوف تسير خلفِى جنازة كبيرة...

سيأتى المتطفلون...

ليروا مَا إِذا كنت حقيقة ميتة...

أم أننى أحاول أن أثير المتاعب!"

* * *

المقالة الخامسة

خصومة خسرها الأدب الْعَرَبِىّ

كنت أتمنى لو اصطدم العقّاد بطه حسين أو طه حسين بالعقّاد، إذن لأعطَتِ المعركة بينهما الكثير من الثمار الَّتِى كان يمكن أن يفيد مِنْهَا الأدب الْعَرَبِىّ الكثير. فلا شكّ أن الصدام بين عميدَى الأدب الْعَرَبِىّ وبين رأسين كرأسَى العقّاد وطـه حسين كان سيُحدِث ضجَّة لاَ يستطيع أحد أن يتنبأ بنتائجها. وثمة خصومة قديمة لم تُؤتِ ثمارَها فِى تاريخ الأدب الْعَرَبِىّ ألا وهى الخصومة بين أَبِى الْعَلاَءِ الْمَعَرِّىّ ودَاعِى الدُّعَاةِ، انسحب مِنْهَا أَبُو الْعَلاَءِ الْمَعَرِّىُّ لأسباب سياسيَّة واتفق الطرفـان على الصمت بعد جدل قصير، أو لَعَلّ ياقوت الراوى شاء أن يختصر الخصومة وأن يزعم أنهما اتفقا على الصمت. كم كانت هِىَ الأُخْرَى معركة مفيـدة ومثمـرة وخطيرة للنتائج!

* * *

رسالة الْغُفْرَان

على أن الصدام بين العقّاد وطه حسين كاد يحدث حين كتب العقّاد عـن الخيال فِى رسالة الْغُفْرَان فقال: "... أمّا أن يُنظَر إِليها كأنها نفحة مـن نفحـات الوحى الشعرىّ على مثال مَا نعرف من القصائد الكُبْرَى الَّتِى يفتنُّ فِـى تمثيلـها الشعراء والقصص الَّتِى يخترعونها اختراعًا، ويُنظر إِليها كأنها عمل من أعمال توليد الصور وإِلباس المعانى المجرَّدة لباس الْمُدرَكات المحسوسة، فليس ذَلِكَ حقًّا وليس فِى

قولنا هَذَا غبن للمَعَرِّىّ أو بخس لرسالة الْغُفْرَان، كلاّ ولا هُوَ مِمَّا يُغضب الْمَعَــرِّىّ أن يُقال هَذَا القول فِى رسالته".

هَذَا فِى نفس الوقت الَّذِى يؤكّد فِيهِ العقّاد: "إن رسالة الْغُفْرَان نمط وحدها فِى آدابنا العَرَبِيَّة وأسلوب شائق ونَسَقٌ طريف فِى النَّقْد والرواية وفكــرة لبقــة لاَ نعلم أن أحدًا سبق الْمَعَرِّىَّ إِليها، اللهم إلاّ إذا استثنينا محــاورات لوســيان فــى الأولمب والهاوية، وفذلَكَة جامعة لأشتات من نكات النَّحْو واللُّغة. ذَلِكَ تقدير حقٌّ موجَز لرسالة الْغُفْرَان".

* * *

طه حسين يخالف العقّاد

واستفزّت هَذِهِ الكلمة الدكتور طه حسين البارد الأعصاب، فكتب يقــول: "... ولكن الَّذِى أخالف العقّاد فيه مخالفة شديدة هُوَ زعمه فِى فصل آخَر أن أبَــا الْعَلاَءِ لَمْ يَكُن صاحب خيال حقًّا فِى رسالة الْغُفْرَان. هَذَا نُكر من القول لاَ أدرى كيف تورَّط فِيهِ كاتب كالعقّاد. نعم إن العقّاد كاتب ماهر يُحــسن الاحتيــاط لنفسه، فهو بعد أن أنكر الخيال على أَبِى الْعَلاَءِ عاد فأثبت لَهُ منه حظًّــا قلــيلاً. ولكنه يستطيع أن يخدع بِهَذَا الاحتياط قارئًا غيرى، أمَّا أنا فلن أنخدع لَــهُ، فهــو ينكر على أَبِى الْعَلاَءِ أن يكون شاعرًا عظيم الحظّ من الخيال فِى رسالة الْغُفْــرَان، "سَنَة سُودَة" كما يقول الْعَامَّة. وهل يعلم العقّاد أن دانتى إِنَّمَا صار شاعرا نابغــة خالدا على العصور والأجيال واثقًا من إعجاب الناس جميعًا بشىء يشبه من كــل وجه رسالة الْغُفْرَان هَذِهِ. أستغفر الله إن من الأوروبيين الآن من يزعم أن شــاعر فلورنسا قَد تأثر بشاعر المعرَّة قليلاً أو كثيرًا".

* * *

والسؤال هُوَ: مَا مدى التوفيق الَّذِى أصابه كل من العقّاد وطه حسين فِى فهم رسالة الْغُفْرَان؟ هنا نموذج لإمكانية الصدام بين الطبيعة العقلانية للعقّاد والطبيعة الفنية لطه حسين. ومهما يكُن الأمر فإن طه حسين فنّان مفكّر أكثر منه مفكرًا فنّانًا، بينما العقّاد مفكّر فنان أكثر منه فنّانًا مفكرًا. وأقرب الأشْيَاء إلى الطبائع أن يفهم العقّاد مَا يعجز عَنْهُ طه حسين، مهما كانت الصلة النفسية والروحية بين طه حسين وأبِى الْعَلاَءِ الْمَعَرِّىّ. بل إنى كثيرًا مَا أشك فِى فهم طه حسين لأبِى الْعَلاَءِ، وبالذات لرسالة الْغُفْرَان، مع أن رسالة الْغُفْرَان -وفِى إحدى فقراتها على التخصيص- تشكّل المنبع أو الأصل الَّذِى استقى منه طه حسين فكرته فِى كتابه الشهير "فِى الشعر الجاهلي". ومن السذاجة أن يُؤخذ عَمَى طه حسين واشتراكه معه فِى محبسه أو محبسَيه دليلاً على قدرة طه حسين فِى فهم أبِى الْعَلاَءِ، فقد يشترك اثنان فِى عاهة دون أن يشتركا فِى الفكر.

إن قِرَاءَة واحدة لكتاب "صوت أبِى الْعَلاَءِ" لطه حسين تدلّل على أنه أبعد كثيرًا من أبِى الْعَلاَءِ فِى الفكر وفِى الطبيعة وفِى الآفاق. لَمْ يَكُن إذن طه حسين بأقدر على فهم أبِى الْعَلاَءِ من العقّاد العقلانى، ولا يمكن تخيُّل أن العقّاد أخطأ فهم رسالة الْغُفْرَان حيث نجح طه حسين. وفهم رسالة الْغُفْرَان بالذات يحتاج إلى الطبيعة العقلانية لدى العقّاد أكثر منه إلى الطبيعة الفنِّيَّة لدى طه حسين، مهما كان القرب المزعوم لطه حسين من أبِى الْعَلاَءِ الْمَعَرِّىّ. على أن العقّاد -باعتراف طه حسين- لم ينكر تَمَامًا الخيال فِى رسالة الْغُفْرَان، وإنَّما أثبت لأبِى الْعَلاَءِ -على حد تعبير طه حسين- حظًّا منه. إنَّمَا أنكر فقط أن تكون نفحة من نفحات الوحى

الشعرى، وهى فعلاً ليست نفحة من نفحات الوعى الشعرى الَّتِى يفتنّ فِى تمثيلها، أى ليست مَسْرَحِيَّة كما أنها ليست قصة أو رواية. ولكن العقّاد فِى تعليقه الموجز على رسالة الْغُفْرَان لم يقُل لنا إِذن مَا هِيَ. إنما ليست قصيدة من القصائد الكبرى "الَّتِى يفتنّ فِى تمثيلها الشعراء"... وليست قصّة. نعم، ولكن يا أستاذنا العقّاد مَا هِيَ وما عساها أن تكون؟ هنا، كأنما اتّفق العقّاد مع نفسه على الصمت الَّذِى اتفق عليه دَاعِى الدُّعَاةِ وأَبُو الْعَلاَءِ أو المؤرخ ياقوت لأسباب فِى نفس العقّاد أو فِى نفس أَبِى الْعَلاَءِ أو فِى نفس ياقوت أو فِى نفس يعقوب! فما عساها أن تكون بواعث هَذَا الصمت؟

* * *

بواعث الصمت

لَمْ يَكُن العقّاد عاجزًا عن الردّ على طه حسين، خصوصًا وأن طه حسين أخطأ فهم العقّاد وقوله ما لَم يقل. إِذن لاَ بُدَّ أن تكون بواعث الصمت لدى العقّاد أقوى من بواعث القول والإضافة والشرح تَمَامًا، كبواعث الصمت لدى أَبِى الْعَلاَءِ، خصوصًا إِذا تذكّرنا أن أَبَا الْعَلاَءِ لَمْ يَكُن يناقش دَاعِى الدُّعَاةِ بقدر مَا كان ينسحب من المناقشة خطوة بعد خطوة فِى كل مرة تجددت فيها الرسائل بينهما. يريد للمناقشة أن تنتهى ويريد لنفسه النجاة من الفخ المنصوب لَهُ -فى ما كان يُظنّ- ويريد لدَاعِى الدُّعَاةِ أن يتركه وحاله وأن لا يجرّه إِلى حديث لاَ تُحمد مغبّته، خصوصًا وأن الظاهر أن دَاعِى الدُّعَاةِ قَد أحسن فهم أَبِى الْعَلاَءِ. والدليل على ذَلِكَ أنه يخاطبه بقوله فِى رسالته: "فإِذن هُوَ -حرسه الله- بمقتضى هَذَا الحكم

مرتوٍ من عذْب مشرب هَذَا العلم وإنّما ليس يبوح بِهِ لضرب من ضروب السياسة، والدليل على كونه ناظرًا إلى معاده سلوكُه سبيل العيش بالتزهُّد وعدوله عن الملاذ من المأكول والمشروب والملبوس وتعففُه عن أن يجعل جوفه للحيوان مـــدفنًا، أو أن يذوق من درِّها لبنها، أو يستطعم من طعام استُكدّت عليه فِي حرثه وإنشائه".

هَذَا الضرب من ضروب السياسة الَّذِى أشار إليه دَاعِى الدُّعَاةِ يدلِّل -كمـــا قلت- على أنه أحسنَ فهم لغز أَبِى الْعَلاَءِ فِى "رسالة الْغُفْرَان" أَيْـــضًا وإن كـــان الحديث يجرى عن لزوم مَا يلزم. وهو باعث الصمت الَّذِى اتفقا عليه فِى النهايـــة، وهو نفسه باعث الصمت لدى أَبِى الْعَلاَءِ، وهو أخيرًا السبب فِى حرمـــان الأدب الْعَرَبِىّ من خصومَةٍ ثريَّة كان يمكن أن تنشأ بين العميدَين العقّاد وطه حسين. لقـــد استطاع طه حسين أن يتكلم باستفاضة فنِّـــيَّة، حيث عجز العقّاد عن الكلام فِـــى دروب السياسة الَّتِى تفتحها أمام القَارِئ -وخصوصا قَارِئ كالعقّـــاد- رســـالة الْغُفْرَان. إذن فقد هرب العقّاد من المناقشة كما هرب أَبُو الْعَلاَءِ مضطرًّا، لاَ عـــن عجز، والدليل على هَذَا ردّ أَبِى الْعَلاَءِ حين يقول مخاطبًا دَاعِى الدُّعَاة: "قال العبـــد الضعيف العاجز أحمد بن عبد الله بن سليمان: أول مَا أبدأ بِهِ، أَنِّى أُعِـــدُّ ســـيدنا الرئيس الأجلّ المؤيَّد فِى الدين -أطال الله بقاءه- مِمَّن ورث حكمة الأنبياء، وأُعِدُّ نفسى الخاطئة من الأغبياء.

وهو بكتابه إِلَىّ متواضعٌ، ومَن أنا حَتَّى يكتب مثله إلى مثلى؟! مثله فِى ذَلِكَ مثل الثُّرَيَّا كتبَت إِلى الثَّرَى. وقد علم الله أن سمعى ثقيل، وبصرى عـــن الأبـــصار نقيل. قُضى علىّ وأنا ابن أربع، لاَ أفرّق بين البازل (الجمل إذا استكمل الثامنـــة) والرُّبع (الفصيل الَّذِى ينتج فِى الربيع)... ثم توالت مِحَنِى، فأشبه شخصى العـــود المنحنِى، ومُنيتُ فِى آخر عمرى بالإقعاد، وعدانى عن النهضة عاد.

وأما مَا ذكره سيدنا الرئيس الأجلّ المؤيد فِي الدين، فالعبدُ الضعيفُ والعاجز يذكر لَهُ ممَّا عاناه طرفًا، فأقول:

إن الله جلّت عظمتُهُ حكم عليّ بالإزهاد، فطفقت من العُدم فِي جهاد، وأما قول العبد الضعيف العاجز: غَدَوْتُ مَرِيضَ الْعَقْلِ وَالدِّينِ فَالْقَنِى، فإنّما خاطب بِه مَن هُوَ فِي غمرة الجهل، لاَ من هُوَ للرِّيَاسة عَلَمٌ وأصل".

* * *

عمل سياسى

سالة الْغُفْرَان إذن عمل سياسيّ قبل أن تكون شيئًا آخر، والكلام فيها ضرب من ضروب السياسة وخوض فِي صميمها فِي كل عصر. ولقد قلت مرارًا إنها برنامج سياسيّ أو خُطّة عمل، أو بالتعبير الحديث "مَانُفستُو"... ومن هنا خطورتها وخطورة الحديث فيها. ومن هنا أَيْضًا اتّفاق كلٍّ مِن دَاعِي الدُّعَاةِ وأبي الْعَلاَءِ وياقوت على الصمت، ومن هنا أخيرًا صمت العقّاد عمدًا عن الردّ على طه حسين، وهنا آخرًا الفرق بين الطبيعة العقلانية والطبيعة الفنية حين تغلب الأولى الأخيرة أو العكس. وهنا يتجلّى ظلم النُقاد للعقّاد، وما أكثر المظالم الّتِي تَعَرَّض لَهَا العقّاد حيًّا وميتًا، ولكن هَذَا موضوع حديث آخر.

المقالة السادسة

حول رسالة الغُفْرَان لأبِي العَلاَءِ المَعَرِّيَ

لاَ يصحّ أن نقول: "وُلد أبُو الْعَلاَءِ الْمَعَرِّيّ عام كذا، وعاش كـذا عامًـا، ومات فِي عام كذا"... فالمهم أن الرجل عاش فِي النصف الثـانى للقـرن الرابـع الهجرى، والأهمّ أنه شغل الناس فِي عصره وما يزال يشغلهم فِي غير عصره منـذ أكثر من ألف عام وحَتَّى كتابة هَذِهِ السطور الَّتِي لم ولن تكون الأخيرة فيما يُكتب عن أَبِي الْعَلاَءِ. عاش عصرًا مليئًا بالاضطرابات والقلاقل والانشقاقات فِي الدولـة الإسلاميّة، مزدحمًا بحركات التمرُّد والخروج والثورة، مليئًـا بالْهَبَّـات الـشعبية الهائجة، حافلاً بمصارع الملوك ومصارع الشعراء، ومـصارع المفكـرين والقـادة والرُّوَّاد، مصطرعًا بالمذاهب المتعددة والمختلطة والمتضاربة والمتشابهة والمتناقضة فِي جميع أنحاء العالم الْعَرَبِيّ.

مَاذَا بقى لَهُ مجالاً للاختيار سوى الاعتزال؟

ولقد استغرقه هَذَا الموقف، موقف المعتزل، حَتَّى لقـد اعتـزل الاعتـزال والمعتزلين، واستغرق هُوَ هَذَا الموقف منذ أربعينيّاته حَتَّى موته فِي الثمانينيات مـن عمره. و لم يكلّ قطّ عن إملاء شعره حَتَّى لقد كتب أهرامات من الـشعر والنثـر ضاع أغلبها أو دُفن معه أو تناقلته الألسن دون أن تدرى شعر ونثر من هَذَا، حَتَّى ضاع أغلب أَبِي الْعَلاَءِ الْمَعَرِّيّ وأكثر مَا أنتجته قريحته مِمَّا أشار هُوَ نفسه إليه أكثر من مرة فِي مقدّمة "سقط الزند" ومقدّمة "اللزوميات" ومستهَلّ "رسالة الْغُفْـرَان". ولا يصحّ أبدًا أن يُعـامَل أبُو الْعَلاَءِ معـاملةَ غيره من الشـعراء بأن يُقال: "قال

أَبو الْعَلاَءِ فِي الموت" أو "قال فِي الخلود" أو "قال فِي البعث" أو "الخمر" وما إِلَــى ذَلِكَ مِمَّا درج عليه نُقَّادُه وشُرَّاحُه. فهو شاعر ليس بالبسيط، إنما هُــوَ صــاحب مذهب متكامل تَطْرُقُ منه الباب الصحيح، فتَدْلُفُ إِلَــى دهــاليز المــذهب وإلى سراديب الفكر البشرى فِي أعمق أعماقه وفِي أرقى تجلِّيَاته.

يأخذ البيت برقبة الآخر والسطر برقبة السطر والشطر يشدّ إليــه الــشطر، وهكذا كالبنيان المرصوص يشدّ بعضُه بعضًا، ولا مجال هنا للتَّجْزِيئِيَّة لأنه كما قلت مذهب متكامل البناء قوىُّ الأُسُس راسخ من المقدِّمات إِلَى النهايات. أمَّا مَا هَــذَا المذهب فتلك قضية أُخْرَى سبق وأن أفردنا لَهَا حديثًا آخرَ طويلاً ومنفــردًا. أمَّــا موضوعنا الآن فهو رسالة الْغُفْرَان الَّتِي دوَّخت وما تزال تدوِّخ النُّقَّــاد والــشُّرَّاح وعلماء الكلام والنَّحْويين والعروضيين. ونحن نزعم أنه مَا من أحد على الإطــلاق استطاع أن يقترب من أَبِى الْعَلاَءِ ذَلِكَ القرب الَّذِى يمكّنه من الفتوى فِي الرجل أو مذهبه.

ونحن لاَ نزعم لأنفسنا هَذَا الشرف، كما لاَ نزعمه للآخــرين، إنمــا هِــيَ محاولات على الطريق إِلَى أَبِى الْعَلاَءِ. إنما حسبنا أن نلفــت النظــر إِلَــى بعــض الظواهر، إِلَى نوعية استشهاداته من أعلام الشعر. قُلْ لى مَاذَا تختار أَقُلْ لــك مَــن أنت! وليس غريبًا أن يختار أَبو الْعَلاَءِ الْمَعَرِّىّ فى من يختار فِي مــستهَلّ الرســالة علقمة الفحل، وهو شاعر جاهلىّ عُمِّرَ طويلاً، والموقف الَّذِى كان بــين علقمــة وامرئ القيس. ثم ليس غريبًا أن يختار أبا زيد، وهو يعنِى أبــا زيــد الأنــصارىَّ البصرىَّ، والثقة فِي النَّحْو واللُّغة كما يلقّبه سيبويه. ثم عُدَىَّ بن زيد العبادىّ، وهو شاعر جاهلى نصرانى، والَّذِى يقول:

أعـــاذل مَـــا يُـــدريك أن منيتـــــى
إلى ساعة فِى اليوم أو فِـــى ضـــحى غـــدِ
فذرنى فما لِى غير مَـــا أُمـــض إن مـــضى
أمـــامىَ مـــن مـــالى إذا خـــف عُـــوَّدى
وحُمَّـــــت لميقـــات إلَـــىَّ مَنيَّتِـــــى
وغُودِرْتُ قَـــد وُسِّـــدتُ أو لَـــمْ أُوسَّـــد
وللوارث البـــاقى مـــن المـــال فـــاتركى
عتـــابى فـــإِنى مُـــصلِحٌ غـــير مفـــسد

ثم يختار أَبُو الْعَلاَءِ الأُقَيْشِرِ، ثم أَبَا نُوَاسٍ، ثم النمر بن تولـــب العكلـــى، ثم نُصيب بن رباح أبو محجن الَّذِى يقول:

أَهِيمُ بِدَعْدٍ مَا حَيِيتُ فَإِنْ أَمُتْ
فَوَا حَزَنَا مَنْ ذَا يَهِيمُ بِهَا بَعْدِى

ثم أحمد بن الحسين المتنبِّى، ثم أَخَا ثُمَالَةَ (المُبَـــرِّد)... ثم أخـــا دوس (ابـــن دريد)... ثم يونس بن حبيب الضبِّىّ، ثم سيبويه، ثم الكسائى، ثم أبا عبيدة، ثم عبد الملك بن قريب (الأصمعى)... ثم البكرى (أعشى قيس)... ثم هوذة بن علـــى، ثم عامر بن الطفيل، ثم زهير ابن أبي سُلْمَى، ثم أبا ذؤيب الهذلى، ثم النابغة الجعدى، ثم لبيد، ثم حسَّان ابن ثابت، ثم الشماخ معقل بن ضرار، ثم أبا عَلِىٍّ الفارسى، ثم يزيد بن الحكم الكلابى، ثم حميد بن ثور الهلالى، ثم جَرَّان العود النُّمَيْرِىّ الَّذِى يقول:

حملـــن جـــران العـــود حَتَّـــى وضـــعنه
بعليـــاءَ فِـــى أرجائهـــا الجـــنُّ تعـــزفُ

وقُلْــنَ تَمَتَّــعْ ليلــةَ النَّــأْيِ هَــذِهِ
فإنــك مرجــومٌ غــدًا أو مــسيَّفُ

ثم الكِنْدِيّ امرأ القيس، إلى غير ذَلكَ مِمَّا يضيق عَنْهُ الحصر، حَتَّــى شــاعر الجنّ الَّذِي نسبه إِلى الجنى أبى هدرش الَّذِى يقول:

حمــدتُ مــن حــطّ أوزارى ومزّقهــا
عــنى، فأصــبح ذنــبى الآن مغفــورا
وكنــت آلَــفُ مــن أتــراب قرطبــةٍ
خُودًا، وبالصين أُخـرى بنـت يغبـورا
أزُورُ تلــك وهــذى، غــير مُكتــرثٍ
فِــى ليلــة قبــل أن أستوضــح النُّــورا
ولا أمــــرُّ بوحــــشىٍّ ولا بَــــشَرٍ
إلاّ وغادرتُــــه ولهـــانَ مـــذعورا

إِلى آخره مِمَّا لاَ تشكُّ فِي أنه من شعر أَبِى الْعَلاَءِ نفسه منسوبًا إِلى الجــنِّ، الأمر الَّذِي يذكِّرنا بترجمة شيطان لعبَّاس محمود العقّاد. وقصيدة الجنِّى فِــى رأينــا تشكِّل أروع مفتاح لرسالة الْغُفْرَان، وفيها يلعب الرجل بالألفاظ اللعبة الَّتِى يجيدها فيملأ القصيدة بالألغاز ثم يفسر هَذِهِ الألغاز ثم يعود فيغطى التفسير.

نقطة أخرى نحب أن نستلفت إِليها النظر وهى الأبيات الَّتِي يستشهد بِهَــا من شعر السابقين وطبيعة هَذِهِ الأبيات. على أنه مَا تزال أشعار العفاريت أخطر مَا قاله أَبُو الْعَلاَءِ فِي رسالة الْغُفْرَان، فهو يتخيل ابْن الْقَارِحِ وقد ركب بعــض دوابٍّ

الْجَنَّة ويسير، فإذا هُوَ بمدائن ليست كمدائن الجَنَّة، ولا عليها النور الشعشعاني، وهي ذات أدحال وغماليل. فيقول لبعض الملائكة:

ابْن الْقَارِحِ: مَا هَذِهِ يا عبد الله؟

الْمَلَك: هَذِهِ جنة العفاريت الذين آمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم، وذُكِرُوا في الأحقاف وفي سورة الجن، وهم عدد كثير.

ابْن الْقَارِحِ: لأعدلن إلى هؤلاء فلن أخلو لديهم من أُعجوبة.

المَلَك: فيعوج عليهم، فإذا هُوَ بشيخ جالس على باب مغارة، فيسلم عليه، فيحسن الرد ويقول:

"العفريت: مَا جاء بك يا انسي؟

ابْن الْقَارِحِ: سمعت أنكم جنّ مؤمنون، فجئت ألتمس عندكم أخبار الجنان، وما لعله لديكم من أشعار المَرَدَة.

العفريت: لقد أصبت العالِم بجدة الأمر، فسَلْ عمّا بدا لك.

ابْن الْقَارِحِ: مَا اسمك أيها الشيخ؟

العفريت: أنا الخيتعور أحد بني الشيصبان، ولسنا من ولد إبليس ولكنا من الجنّ الذين كانوا يسكنون الأرض قبل ولد آدم صلى الله عليه...

ابْن الْقَارِحِ: أخبرني عن أشعار الجن، فقد جمع مِنْهَا المعروف بالمرزُباني قطعة صالحة.

العفريت: إِنَّمَا ذَلِكَ هذيان لاَ معتمَد عليه، وهل يعرف البشر من النظيم إلاّ كما تعرف البقر من علم الهيئة ومساحة الأرض؟ وإنّما لهم خمسة عشر جنسًا من الموزون قلّ مَا يَعْدُوها القائلون، وإن لنا لآلاف

أوزانٍ مَا سمع بِهَا الإِنس وَإِنَّمَا كانت تخطر بهم أُطيفال منّا عارمون، فتنفث إليهم مقدار الضوازة من أراك نعمان. ولقد نظمت الرجــز والقصيد قبل أن يُخلق الله آدم بكور أو كورين. وقد بلغني أنكــم معشر الإنس تلهجون بقصيدة امرئ القيس "قِفَا نَبْكِ مِنْ ذِكْــرَى حَبِيبٍ وَمَنْزِلِ" وتُحفظونها الحزاورة فِي المكاتب، وإِن شئت أمليتك ألف كلمة على هَذَا الوزن، على مثل: *متزلٍ وحوملِ* وألفًا علــى ذَلكَ القرى يجيء على *متزلُ وحوملُ* وألفًا على *متزلاً وحوملاً* وألفًا على *متزله وحومله* وألفًا على *متزلُه وحوملُه* وألفًا علــى *متزلَه وحوملَه* وكل ذَلكَ لشاعر منّا هلك وهو كافر، وهو الآن يشتغل فِي أطباق الجحيم.

ابْن الْقَارِحِ: أيها الشيخ، لقد بقي عليك حفظك.

العفريت: لسنا مثلكم يا بني آدم، يغلب علينا النسيان والرطوبــة، لأنكــم خُلقتم من حَمَأٍ مسنون، وخُلقنا من مارج من نار.

ابْن الْقَارِحِ: أَفَتُملّ عليَّ شيئًا من تلك الأشعار؟

العفريت: فإِذا شئت أمليتك مَا لاَ تَسُوقُهُ الركاب، ولا تسعه صحف دنياك.

ابْن الْقَارِحِ: (لنفسه) لقد شقيت فِي الدار العاجلة بجمع الأدب. ولم أحــظَ منه بطائل، ولست بموفّق إِن تركت لذات الجنّة وأقبلــت أنتســخ آداب الجنّ، ومعي من الأدب مَا هُوَ كافٍ، لاسيما وقــد شــاع النسيان فِي أهل أدب الجنّة، فصرت من أكثرهم رواية وأوســعهم حفظًا، ولله الحمد".

واضح أن أَبَا الْعَلاَءِ هُوَ نفسه "الخيتعور"... وهو نفسه فِي هَذَا المشهد ابْـــن الْقَارِحِ، وواضح أن ثقافته الموسوعيّة النادرة حَتَّى فِي علم الهيئة وعلـــم الحـــساب تسخر من مثقفِي عصره ومن علماء الكلام ومن النُّقّاد والشُّرَّاح.

إِن الحديث عن أَبِي الْعَلاَءِ حديث يطول، فإِلَى عودة مع أَبِي الْعَلاَءِ الَّذِي يقول، ولطالما اتُّهم بالتشاؤم ظلمًا:

لو قيلَ لم يبقَ ســـوى ســاعة
أَمَّلْتُ مَا تعجـــز عَنْـــهُ سَـــنَةْ

المقالة السابعة

بين هوامش الغُفْرَان

(١) سؤال عن ابْن الْقَارِح:

لاَ يوجد عمل فِي أدبنا الْعَرَبِيّ على إطلاق تحار فِيهِ العقول كما تحار فِي "رسالة الْغُفْرَان" لأَبِي الْعَلاَءِالْمَعَرِّيّ. وأكثر من هَذَا ابتعاثًا للحيرة الدوافع الَّتِي دفعت رجلاً كأَبِي الْعَلاَءِ إِلى أن يكتب مثل هَذِهِ الرسالة الإلغازية إِلَى رجل كابْن الْقَارِح. فمَن ابْن الْقَارِح؟

إن أَبَا الْعَلاَءِ نفسه يحدِّثنا بأنه يعرف ابْن الْقَارِح معرفة سطحية حين يقول: "... وأوَّل مَا سمعت بأخبار الشيخ من رجل واسطيٌّ يتعرض لعلم العروض، ذكر أنه شاهده بنصيبين وفيها رجل يُعرف بأبِي الحسين البصرى، معلمًا لبعض العلوية، وكان غلام يختلف إِليه يُعرف بابن الدان، وقد اجتاز الشيخ ببلدنا والواسطى يومئذ فِيهِ. وقد شاهدت عند أبِي أحمد عبد السلام -رحمه الله- كُتُبًا عليها سماع لرجل من أهل حلب، وما أشكّ أنه الشيخ، وهو لاَ يفتقر إِلَى تعريف بالقريض، كما قال الطائي:

تحميـــــه لألاؤه أو لوذعيَّتـــــه

من أن يُذال بِمَنْ؟ أو مِمَّن الرجـــلُ؟

إن أَبَا الْعَلاَءِ نفسه يشكُّ فيما هُوَ يؤكد أنه لاَ يعرف ابْن الْقَـارِح معرفة يقينية قاطعة. ثم إن ابْن الْقَارِح لَمْ يَكُن بالشخصية الشهيرة المتفقهة فِي علوم الدين واللُّغة والكلام، وما كان لرجل كأَبِي الْعَلاَءِ أن يكتب مثل هَذِهِ الرسالة الَّتِي تُعتبر

أهمَّ مَا كتب إِلَى شخصية عابرة لاَ تتمتع بالصيت القوى فِي عصره. فقد كان المعقول أن يكتب مثل هَذهِ الرسالة إِلَى شخصية كشخصية أبي نصر ابن أبي عمران -دَاعِي الدُّعَاةِ- لاَ إِلَى ابْن الْقَارِحِ المزعوم. ثم إن ابْن الْقَارِحِ يُعرِّفنا ببدء التعارف بينه وبين أَبِي الْعَلاَءِ بطريقة أكثر سطحية وأكثر ابتعاثًا للقلق والحيرة، وذَلِكَ حين يقول فِي رسالته إِن أَبَا الْعَلاَءِ ذُكر اسمه فِي مناسبة عابرة حين قال فِي مَا نقله ابْن الْقَارِحِ: "بلغني عن مولاى الشيخ -أدام الله تأييده- أنه قال وقد ذُكرت لَهُ: أعرفه خبرًا، هُوَ الَّذِي هجا أبا القاسم عَلِيَّ بن الحسين المغربيّ".

هَذهِ المعرفة الجادّة من جانب أَبِي الْعَلاَءِ تثير القلق أكثر. ثم إن رجلاً كأَبِي الْعَلاَءِ كانت العيون تترصَّده وتطارده فى ما يكتب أو يقول. ورجلاً بِهَذَا الحذر، ورجلاً سبق أن سُرق لَهُ رَحْل بِهِ رسائل أُخْرَى من ابْن الْقَارِحِ إِلَى أَبِي الْعَلاَءِ، رجلاً كهَذَا وبمرارات أَبِي الْعَلاَءِ لاَ يمكن أن ينزلق إِلى التراسل المفتوح بينه وبين ابْن الْقَارِحِ الَّذِي نَحَارُ بين كونه يعرفه معرفة يقينية وكونه يعرفه معرفة سطحية، وبين واقعة أنه كتب رسالة الْغُفْرَان لَهُ بالذات وإن أخذت الشكل الشفرى الإلغازيّ الغامض الَّذِي هِيَ عليه. هُوَ الَّذِي لم ينزلق إِلَى مثل هَذَا الحوار المفتوح مع دَاعِي الدُّعَاةِ و لم يستجب لاستفزازاته المتكررة.

هل ابْن الْقَارِحِ شخصيَّة وهميَّة ألبسها أَبُو الْعَلاَءِ أفكاره وجسد فيها رؤاه؟ نبادر فنقول: لاَ. إنها شخصية حقيقية ولكن الاسم مستعار تختفِي وراءه شخصية هامَّة فِي ذَلِكَ العصر. إنهما يتحاوران أو يحاورها أَبُو الْعَلاَءِ دون أن يتورط فِي كشف النقاب عن وجهها الحقيقى، وذَلِكَ لظروف سياسية واعتبارات دينية معينة. تُرى من عساها تكون تلك الشخصية؟ نحن نظنّ، وهَذَا أغلب الظنّ، أنها شخصية

دَاعِى الدُّعَاةِ نفسه الَّذِى اتفق مع أَبِى الْعَلاَءِ بعد المراسلة على المساكتة أو الصمت كما يسجِّل ذَلِكَ ياقوت. فمن اللاَّفِت للنظر هَذِهِ الجدِّيَّة فِى الكتابة إِلَى ابْن الْقَارِحِ، ومن اللاَّفِت للنظر هَذِهِ الطمأنينة والثقة فِى الكتابة إليه. ومن اللاَّفِت للنظر أن رجلاً كأَبِى الْعَلاَءِ بطبيعته كان شديد الحذر من الناس ومن العصر. ومن اللاَّفِت للنظر أخيرًا ذكاء ابْن الْقَارِحِ فِى الرسالة الَّتِى وصلت إِلَى أَبِى الْعَلاَءِ بين رسائل أُخْرَى سُرقت ثم رغم ذَلِكَ يكتب أَبُو الْعَلاَءِ رسالته بطريقته الشَّفْرِيَّة هَذِهِ ممتحنًا ذكاء ابْن الْقَارِحِ وذكاء من قَد تقع بين يديه رسالة الْغُفْرَان. من هنا شدة صعوبة رسالة الْغُفْرَان على من يحاول حلّ ألغازها وفكّ رموزها وتحليل محتواها.

(٢) سؤال آخر عن حكاية الطفل:

ورد فِى رسالة الْغُفْرَان ذكر لطفل بِمَا نصُّه أن التألُّه، أى التوحيد، غريزة فِى الطفل. وورد ذكره فِى مطلع رسالة الْغُفْرَان بطريقة غير مباشرة، كما سبق أن ورد فِى لزوميات أَبِى الْعَلاَءِ وفِى سقط الزند. ومن العبث أن نَمُرّ بِهَذِهِ الظاهرة مرورًا عابرًا، فهو الطفل الَّذِى يريد أَبُو الْعَلاَءِ أن يربِّيه منذ المهد كما فعل أفلاطون والفارابي من قبلُ لكى يحكم العالَم. فهل كان أَبُو الْعَلاَءِ هُوَ الآخر طوباويًّا؟ إن أفلاطون لم يكتفِ بأن كتب جمهوريته بل راح يبحث عَنْهَا بالعمل السياسىّ الدائم فِى العالم المحيط بِهِ، وكذَلِكَ الفارابي. نعم لقد مارسوا السياسة قبل وبعد التورُّط فِى الطوباويَّة، فهل تورَّط فيها أَبُو الْعَلاَءِ الَّذِى قال: "إنما هَذِهِ المذاهب أسباب لجلب الدنيا إِلى الرؤساء"... نعم، حَتَّى أَبُو الْعَلاَءِ كان طوباويًّا، وراح يبحث فِى

عصره عن الشخصيَّة الَّتي تتجسد فيها أحلامه وأفكاره ورؤاه فلم يجد فى مَن حوله أحدًا و لم يجد بين المذاهب على الإطلاق مذهبًا واحدًا يستريح إليه ويهـــدأ عنـــده فراح يبحث عن إمكانية تربية المستبدٌ العادل أو المهدىٌ المنتظَر وذَلِكَ منذ نعومـــة أظفار الطفل. ولذَلِكَ جاءت رسالة الْغُفْرَان خطٌ عملٍ أو برنامجًا سياسيًّا لاَ علاقـــة لَهُ فِي الواقع بجنة أو بنار إلاّ علاقة الحقيقة بالمجاز.

الجزء الثانى

دليل القارئ الذكى إلى عالَم أبِى الْعَلَاءِ

(دراسة)

الفصل الأول
مشترط أبِى الْعَلاَءِ

أقررت بالْجهل وادَّعى فهمى قـــومٌ... فأمرى وأمرُهم عَجَبُ
والْحـــقُّ أنّى وأنَّهـــم هَـــدَرٌ لستُ نجيبًـــا ولاَ هُـــمُ نُجُبُ(1)

أبُو الْعَلاَءِ

يقول أبُو الْعَلاَءِ فِى مستهَلّ مقدّمته لِلُزُومِيَّاتِهِ مَا نَصُّه: "... وإنَّما وضـــعتُ أشياء من العظة، وأفانين على حسب مَا تسمحُ بِهِ الغريزة. فإن جاوزتُ المـــشترَط إلى سواه فان الّذِى جاوزتُ إليه قولٌ عُرِّىَ مِنَ الْمَيْنِ. وجمعتُ ذَلِكَ كلـــه فِـــى كتاب لقّبته [لزوم ما لا يلزم]"!

هناك إذن مشترَط، مصطلَح، لغة سِرِّيَّة!!

وهناك نوع مشترَط من العظة وأفانين على حسب مَا تسمح بِـــهِ الغريـــزة، وآخر بالضرورة غير مشترَط، أى نوع باطنى وآخر ظاهرى. ودون التَّفرِقَـــة بـــين مشترَط وغير مشترَط أبِى الْعَلاَءِ لاَ يمكن فهم مقاصد الرجل أو مقصده الرئيـــسى فِى كُل مَا كتب وقال. فهو نفسه الّذِى يقول فِى "رسالة الملائكة": "... وحـــقّ لمثلى أن لا يُسأل، فإن سُئل تَعَيَّنَ عليه أن لا يجيب، فإن أجاب ففَرْضٌ على السامع أن لا يسمع منه، فإن خالف باستماعه ففريضة أن لا يكتب مَا يقول، فإن كتبـــه فواجب أن لا ينظر فِيهِ، فإن نظر فِيهِ فقد خبط عشواء"!

إلى هَذَا الحدِّ يخشى الرجل على مشترَطه؟!

إِلى هَذَا الحد يخشى أن تُفهم مقاصده الباطنة من وراء العظات والحِكَم وأفانين القول الَّتِى تسمح بِهَا الغريزة!

إذن فصعوبة قِرَاءَة وفهم أَبِى الْعَلاَءِ صعوبةٌ متعمَّدة واضطرارية وتكتيكية أمْلَتْها دوافعُ التخفِّى والتنكُّر والتغطية، الأمر الَّذى يجب أن يدفع القَارِئ إِلى الإصرار على الصبر عليه والتصميم على فهمه لاَ الانصراف عَنْهُ ولا الزهد فِيه إيثارًا للراحة وجريًا وراء السهولة، خصوصًا وأن فهم أَبِى الْعَلاَءِ بالذات والآن بالذات هُوَ -كما اتضح وسيتضح أكثر- مسألة حياة أو موت بالنسبة إِلى القُرَّاء العرب فِى ظلِّ المتغيرات الجديدة فِى وطننا الْعَرَبِىّ الذبيح.

فلْنُضِفْ هنا قول الرجل فِى مقدِّمة اللزوميات: "وقد بنيتُ هَذَا الكتاب على بنية حروف المعجم المعروفة مَا بين الْعَامَّة لاَ الَّتِى رتبها العلماء بمجارى الحروف".

مِمَّا يعنى على سبيل القطع وجود بنيتين لحروف المعجم، إحداهما للعامَّة والأخرى للعلماء "الْخَاصَّة"... أى وجود معجمين أو مشترَطَين: ظاهرىٌّ وباطنىٌّ. فمن العبث إذن محاولة فهم أَبِى الْعَلاَءِ ببنية حروف المعجم المعروفة لدى الْعَامَّة. إنها بنية ظاهرية لاَ تزيد الأمر إِلاَّ غموضًا كما هِىَ الحال فِى كل مَا كتبه العقّاد وطه حسين وبنت الشاطئ ولويس عوض وغيرهم، وإن كان الوقت لم يَحِنْ بعدُ لمراجعة الأساتذة المذكورين فى ما كتبوا. وإِلى أن يحين أقول إنه يمكن فهم أَبِى الْعَلاَءِ فقط بالتعرُّف على بنية الحروف كما رتَّبها العلماء.

ومن هنا ذهبَت مع الريح أطنان النَّقْد والشروح الَّتِى كُتبت وما تزال تُكتب عن أَبِى الْعَلاَءِ منذ أَوْدَعَ الرجلُ أعمالَه ذِمَّة الأجيال والتَّارِيخ وذِمَّة أنصاره ومريديه وأتباعه من أعضاء حزبه السِّرِّىّ، أعضاء الْكَتِيبَة الْخَرْسَاء. وضاع من أعماله مَا ضاع وبقِى مَا بقِى، وربَّمَا شُوِّهَ بعض أعماله أو تَعَرَّضَ للحذف والدسِّ والانتحال

والإبدال. وظلّ هُوَ كأبي الهول الرهيب يرفض أن يبوح بسرِّه المَهُول لمن يعتنون بالظاهر في ما يقرأون. وهم -للأسف- الأغلبية الساحقة من القُرَّاء العرب!

ها هو الرجل يتبرأ للمرة الألف رُبَّمَا من النَّحْو والصرف واللُّغة مِمَّا يُصِرُّ الرُّوَاةُ والشَّارِحُونَ على اتِّهامه بالولع بِهِ، فيقول فِي رسالة الملائكة: "كنت فِي غيسان (عنفوان) الشبيبة أودّ أنِي من أهل العلم، فسجنتَنِي (فحبستَنِي) عَنْهُ سواجنُ غادرتني مثل الكرة رهن المحاجن. فالآن مشيت رويدًا وتركت عَمْـرًا للضارب وزيدًا. وما أوثر أن يزاد فِي صحيفتِي خطأ فِي النَّحْو فيخلُد آمنا من المحو"[٢].

ثم يقول فِي نفس الرسالة: "ولَمَّا وافى شيخنا أبو القسم على بن محمد بن همام بتلك المسائل -النَّحْوية والصرفية-...

فقلت اصطحبها أو لغيري فاهدها
فما أنا بعد الشيب -ويلك- والخمر
تجاللت عَنْهَا فِي السنين الَّتِي مضت
فكيف التَّصَابِي بعدما كلأ العمر"!

مشبِّهًا المسائل الصرفية والنَّحْوية واللغوية بالخمر الَّتِي امتنع عَنْهَا وزهد فيها منذ زمن بعيد مَا بين الشبيبة والشيب. وهنا نعود لنستدعي إِلى الذاكرة قوله الحاسم:

من يبغِ عندي نحوًا أو يُرِدْ لُغَةً
فما يُساعفُ من هَذَا ولا هذي

وقوله القاطع:

مَا النَّحْـــو والـــشعر والكـــلامُ ومـــا
مُـــرقّشٌ والُمـــسيَّبُ بْـــنُ عَلَـــسْ

ومن المفيد جدًّا للتعرُّف على مُعْجَم أبِى الْعَلاَءِ والولوج إِلى عالمـــه المكـــتظّ بالألغاز والأسرار والطلاسم أن نعود إِلَى مقدّمة اللزوميات، حيث يقول: "ومـــن الأبيات الموضوعات للمعانى:

أقـــولُ لعبـــد الله لمـــا ســـقاؤنا
ونحن بوادى عبـــد شمـــس وهاشـــم

فهَذَا ألغز قولهُ -وهى شم- وهو يريد وهى من الوهى وشم من شيم البرق عن قوله -وهاشم- إِذا كان هاشم اسم رجل. فلو جاءت بعد ذَلِـــكَ الخـــضارم، والأكارم، ودائم، ونحوها لكان عندى غير قبيح"!

ها هُوَ الرجل يشرح لك البيت المذكور ويحلّ ألغازه ويبيّن لك وجه اللعب بالألفاظ فِيهِ فيعطيك فِى نفس الوقت واحدًا من المفاتيح السرية لفهم أقواله هُـــوَ وفكّ رموزها، وطريقة إِلَى الولوج إِلى عالَمه ومقاصده ومراميه. وعلى هَذَا يصبح من الواضح أن الرجل لم يقصد بمقدّمة اللزوميات وسقط الزند أن يعطيك دروسًـــا فِى اللُّغة أو العروض -كما قال لنا مرارًا- وإِنَّما اتخذ ذَلِكَ كله وســـيلة لتمريـــر رموزه السرية الباطنية وتمرير مفردات معجمه المشترط. نعم اتخذ ذَلِكَ كله وســـيلة للتستُّر ووسيلة فِى نفس الوقت للإيصال. ولكنه لاَ يقف عند هَذَا الحد بل يتجـــزأ فيعطيك بعضًا من مفردات معجمه السرى مباشرة ودون خوف، فيقول فِى رسالة الملائكة أَيْضًا: "ولا يحسن بساكن الجنان أن يصيب من ثمارها فِى الخلود وهـــو لاَ يعرف حقائق تسميتها:

كمثرى الجنان: ولعل فِى الفردوس قومًا لاَ يدركون أحروف كمثرى كلها أصلية أم بعضها زوائد. ولو قيل لهم مَا وزن كمثرى على مذهب أهل التصريف لم يعرفوا فعلى.

السفرجل: وما يجمل بالرجل من الصالحين أن يصيب من سفرجل الجنة فِى النعيم الدائم وهو لاَ يعلم كيف تصغيره وجمعه، وهو لاَ يشعر إن كان يجوز أن يشتقّ منه فعل أم لاَ.

السندس: وهَذَا السندس الَّذِى يطؤه المؤمنون ويفترشونه، كم فيهم مِن رجل لاَ يدرى أوزنه فُعْلُل أم فنُعُل.

شجرة طوبى: وشجرة طوبى، كيف يستظلّ بِهَا المؤمنون المتّقون ويجتنونها آخر الأبد، وفيهم كثير لاَ يعرفون أمن ذوات الواو هِىَ أم من ذوات الياء... ولعلنا لو سألنا من يرى طوبى فِى كل حين: لم حذف مِنْهَا الألف واللام؟ لم يُحر فِى ذَلِكَ جوابًا.

الحور: ومن هُوَ مع الحور العين خالدًا مخلدًا، هل يدرى مَا معنى الحور؟

الإستبرق: وكيف يستجيز من فُرُشُه الإستبرق أن يمضى عليه أبدًا بعد أبد وهو لا يدرى كيف يجمعه جمع التكسير وكيف يصغّره.

تلك عيّنات وأمثلة من المشترَط، من مُعْجَم العلماء الخاص الَّذِى رتّب عليه أَبُو الْعَلاَءِ لزومياته، ويسوقها أَبُو الْعَلاَءِ هنا مغامرًا بكل شيء من أجل أن لا يُؤخذ كلامه على المعنى الظاهرى وبمعجم الْعَامَّة. ثم هُوَ يؤكد بِهَذَا أن جميع المقدسات يجب أن لا تؤخذ على معناها الظاهرى ولا بمعجم الْعَامَّة وأن لَهَا معانِىَ أُخْرَى باطنية لاَ يعلم تأويلها إلاّ قليل، وأن القَارِئ الَّذِى يكتفِى بالمعنى الظاهرى لأقوال أَبِى الْعَلاَءِ إنما "يخبط خبط عشواء"... على حدّ تعبيره السالف الذكر بعاليه. وما

دام الأمر كذَلِكَ فكل شيء معرَّض للشك والتأويل والتحريف والإبدال -إبـــدال الحروف- والحذف والزيادة والكذب والافتراء وسوء الفهم، إلخ.

ولننظر مَا تَعَرَّض لَهُ التُّرَاث الْعَرَبِيّ كله على مدى العصور، مِمَّا ســبق أن أشرنا إِليه وأوضحناه، خصوصًا وأن العَرَبِيَّة قَد أصابها التغيير وجهل أهلـــها بِهَـــا، علاوة على عدم صيانتهم لَهَا من الألفاظ المدسوسة والمنحولة والمبدَّلة كما يرد على لسان الخليل بن أحمد فِي رسالة الملائكة حين يقول: "إن الله جلّت قدرته جعل من يسكن الجنة مِمَّن يتكلم بكلام العرب ناطقًا بأفصح اللغات كما نطق بِهَا يعــرُبُ بن قحطان أو معَدّ بن عدنان وأبناؤه لصلبه، لاَ يدركهم الزيغ ولا الزلل، وإِنَّمـــا افتقر الناس -فِي الدار الغرارة- إِلى علم اللُّغة والنَّحْو لأن العَرَبِيَّة أصابها تغيير. فأمّا الآن فقد رُفع عن أهل الجنّة كل الخطأ والوهم"...

ضاعت العَرَبِيَّة إذن بين الفصاحة والعُجْمَة وبين الأصول والزوائد، على أن الفردوس أو النعيم أو الجنة الَّتِي يقصدها أَبُو الْعَلاَءِ الَّتِي يشترط لـــدخولها المعرفـــة الصحيحة باللُّغة العَرَبِيَّة فِي معجميها العامِّيّ والخاصّ والظاهريّ والباطنيّ والصحيح الفصيح لاَ المستعجم الدخيل، هِيَ جنّة المعرفة والفهم والتعقُّل، وهَذَا مَا يوجبه على جنوده من أعضاء الْكَتِيبَة الْخَرْسَاء!!

يقول أَبُو الْعَلاَءِ فِي مقدمة اللزوميات: "فأمَّا الأبيات الَّتِي تنسبُ إِلى الكاهنة الَّتِي لَهَا حديث مع عبد الله بن عبد المطلب، أعني قولها:

إني رأيــــتُ غمامـــــةً برقـــتْ
بيـــضاءَ بـــين حنـــاتمِ القطـــرِ
وظننتـــــهُ شـــرفًا لـــــصاحبه
مَـــا كـــل قـــادح زنـــدِهِ يَـــوْرِى

فإن الواو قَويَت لأن بعد الراء ياءً أصليّة يجوز أن تُجعل رويًّا ولا يمتنـــعُ أن تكون لغة الكاهنة الهمز على لغة من قال مُؤسى فهمز الواو لِمُجَاورَة الضمَّة كمـــا يهمزها إذا كانت الضمَّة فيها موجودة، وقد يجوز أن تكون من باب السِّنَاد، فـــإن صحّ فهو أشنعُ مَا يكون. وإذا اختلف الروى فكان مرّة دالاً ومـــرة ذالاً أو ســـينًا وشينًا أو نحو ذَلِكَ من الحروف المتقاربة فهو الَّذى يُسَمَّى الإكفاء. قال الراجز:

قَد علمـــت بِـــيضٌ يَمِـــسْنَ مَيْـــسَا

ألاّ أزال فقـــــــــه ورَيـــــــــشَا

حتَّـــى قتلـــتُ بـــالْكَرِيم جيـــشَا"

ألم أقُل لك أيها القَارِئ: إنك لن تستطيع مع أَبِى الْعَلاَءِ ولا معى صبرًا؟!

أولاً: لِمَاذَا الأبيات الَّتِى تُنسَب إِلَى الكاهنة بالذات؟!

ثانيًا: أىّ حديث كان للكاهنة مع عبد الله بن عبد المطلب بالذات؟

ثالثًا: لِمَاذَا لغة الهمز، أى لغة الرمز والسرية والباطنية، ومع عبد الله بن عبد المطلب؟! مَا دلالة هَذَا؟ وما النتائج المترتبة عليه؟ ومَاذَا ينجو أو يتبقى تحت مجهـــر منهج الشَّكّ عند أَبِى الْعَلاَءِ؟!

رابعًا: لِمَاذَا الهمز فِى لغة الكهنة عمومًا على مرِّ العصور واختلاف الأديـــان خصوصًا وأن أَبَا الْعَلاَءِ يستدعى هنا ذاكرتنا إِلَى البيت الَّذِى كثيرًا مَـــا ســـلفت الإشارة إليه:

ولحبر اليهود[٣] فِى درسه التو   راة فنٌّ والهم فِى التدبيلِ

خامسًا: لِمَاذَا تكون لغة الهمز لدى الكاهنة على لغة "من قـــال مؤســـى" بالذات، لغة مَن إذن تلك المهموزة؟!

سادسًا: قوله "فإنْ صحّ فهو أشنعُ مَا يكون"! أيعود حقًّا على القضية العروضية المطروحة على سبيل التغطية والتمويه أم يعود على السَّنَاد نفسه، أى على حديث الكاهنة مع عبد الله بن عبد المطّلب، ومن ثَمّ فإذا صحّ يصبح الأمر أشنع مَا يكون؟! وفعلاً.

سابعًا: الرجل يوحى إليك إِلَى جانب الهمز فِى اللُّغة بإمكانية إبدال الحروف المتقاربة. دال-ذال-سين-شين، إلخ.

كما يشير إِلَى التبادل الممكن بين العبرية (لغة من قال مؤسى) والعَرَبِيَّة!

ثامنًا: لِمَاذَا بعد "لغة من قال مؤسى" يستشهد أَبُو الْعَلاَءِ بقول الراجز: "قَد علِمَت بيضٌ يَمِسْنَ ميسا"... يمسن - ميسا - ومؤسى؟! هل هِىَ مصادفة؟! مجرَّد تداعى خواطر وأفكار وكلمات وحروف؟! أَبُو الْعَلاَءِ أذكى وأشدّ دهاءً من أن يترك فِى سائر أعماله شيئًا للمصادفة، فكل شىء لديه مقصود ومخطّط ومدبَّر ومدروس ومصوَّب إِلَى هدف لاَ يخطئه أبدًا! وتدليلاً على هَذَا دعونا هنا بالذات نقفزْ إِلَى مقدِّمة رسالة الملائكة آخذين معنا يمسن - ميسا - مؤسى، لنرى مدى ذكاء الرجل الَّذِى لعب بجميع العقول لأكثر من ألف عام، ومدى مَا تكلفه من مشاقّ وأعباءٍ لإيصال أفكاره إلى الأجيال القادمة من بعده!

إنه بادئ ذى بدء يعطيك مفتاحًا آخر سريًّا إِلَى عالَمه هُوَ "قلب الحروف أو عكسها"، بعد أن أعطاك "إبدال الحروف"، حَتَّى لَيَصْدُق عليه مَا قاله أحد الشعراء عن واصل بن عطاء: "عليم بإبدال الحروف"...

فلنمضِ مع الرجل مستعينين بالصبر. يقول: "أفتراني أدافع ملك النفوس "الموت"... فأقول: أصل ملك مألك، وإنَّما أخذ من الألوكة (الرسالة!) ثم قلب. ويدلُّنا على ذَلِكَ قولهم الملائكة فِى الجمع لأن الجموع تردّ الأَشْيَاء إلى أصولها...

فيعجبه مَا سمع، فينظرنى ساعة لاشتغاله بِمَا قلت، فإذا همّ بالقبض قلت: وزن ملك على هَذَا القول مَعِل، لأن الميم زائدة، وإذا كان الملك من الألوكة، فهو مقلوب من ألك إِلَى لأك... فوزن الملائكة علي هَذَا مَعَافِلَة، لأنها مقلوبة عن مَآلِكَة".

ترى مَاذَا تَبَقّى من التُّرَاث الْعَرَبِيّ كله بلا استثناء بعد عمليات القلب والإبدال والتعاكس والتعجيم والهمز؟! وعلى أية صورة تبقى؟! ثم أَلِهَذَا اكتظّ الباقى منه بالإسرائيليات على "لغة من قال مؤسى" أو لغة "الكاهنة" المهموزة؟! ثم على أى وجه إذن يتحتَّم علينا أن نتناول تراثنا محاولين فهمه أو فهم البقية الباقية منه وغربلته وتنقيته وتحقيقه والشكّ فِى الكثير منه وردّه إِلَى الأصول؟! على أى وجه غير وجوه القلب والتعاكس والإبدال، تَمَامًا كما فعل الكهنة من أحبار اليهود؟!

يستطرد أَبُو الْعَلاَءِ فيقول: "أم ترانى أدارى (أدافع) منكرًا ونكيرًا فأقول: كيف جاء اسماكما عربيَّين منصرفين وأسماء الملائكة أكثرها من الأعجمية مثل إسرافيل - وجبرائيل - وميكائيل؟ فيقولان: هات حُجّتك، وَخَلِّ الزخرف عنك! فأقول متقربًا إليهما: قَد كان ينبغى لكما أن تعرفا مَا وَزْن ميكائيل وجبرائيل على اختلاف اللغات فيهما، إذ كانا أخويكما فِى عبادة الله، فلا يزيدهما ذَلِكَ إلا غلظة. ولو علمت أنهما يرغبان فِى مثل هَذِهِ العلل، لأعددت لهما شيئًا كثيرًا من ذَلِكَ، ولقلت لهما: مَا تريان فِى وزن موسى "اسم" كليم الله الَّذِى سألتماه عن دينه وحجته فأبان وأوضح. فإن قالا: موسى اسم أعجميّ إلا أنه يوافق العَرَبِيَّة، على وزن مُفْعَل وفُعْلَى. أمّا مُفْعَل فإذا كان من ذوات الواو مثل أوسيت وأوريت فإنك تقول: مُوسَى ومُورَى".

وهنا نتذكر قوله على لسان الكاهنة: "مَا كل قادح زنده يُورِى"!

ثم يستطرد أَبُو الْعَلاَءِ: "وإذا كان من ذوات الهمز (يقصد لغة الكاهنة المشار اليها ولغة من قال مؤسى) فإنك تخفّف حَتَّى تكون الواو خالصة من مُفعــل، وإِذا قيل إِن موسى فُعلى فإنّ جَعْل أصله الهمز وافق فُعْلَى من مأس بين القوم إذا أفــسد بينهم. قال الأفوه (شاعر يماني قديم):

إِمــــا تـــــرى رأســــىَ ازرى بِــــهِ
مـــأسُ زمـــانٍ ذى انتكــاس مَئُــوس

ويجوز أن يكون فُعْلَى من ماس يميس "تبختر واحتال"... فقلبت اليـــاء واوًا للضمَّة كما قالوا الكُوسَى وهى من الكيس"؟!

أرأيتم إِلى ذكاء الرجل؟!

لقد وصل عن طريق اللُّغة والنَّحْو والصرف والعروض والقلــب والإبـــدال والتعاكس إِلَى الماس. إِلَى الْمَاسُونِيَّة، الدين أو التنظيم الـــسرى البــاطنى لليهـــود والأصل الكامن وراء جميع أقنعتها التنكُّرية حَتَّى الصهيونية...

ومع ذَلِكَ ما زال بعض السُّذَّج فِى عالَمِنا الْعَرَبِىّ المنكوب يُــصِرُّ علـــى أن يفرق الْمَاسُونِيَّة واليَهُودِيَّة والصهيونية خوفًا من أن يُتـــهم بالعـــداء للــساميَّة أو بالعنصرية مع أننا نخوض حربًا ضدٌّ عدو هُوَ من أشدُّ غلاة العنصرية!

يقول أَبُو الْعَلاَءِ بعد ذَلِكَ مباشرة: "فإذا سمعتُ ذَلِــكَ منـــهما، قلـــت: لله دَرُّكما! لم أكُن أحسب أن الملائكة تنطق بمثل هَذَا الكــلام ولا تعــرف أحكـــام العَرَبِيَّة"!

أى أن الكهنة والأحبار يعلمون جيدًا أحكام العَرَبِيَّة، تلك الَّتِي نَسيَها أو أهملها أهلوها وناموا عَنْهَا! وهكذا عُدْنَا عن طريق رسالة الملائكة إِلَى مقدّمة اللزوميات ولغة الهمز الكهنوتية الْمَاسُونِيَّة اليهوديّة الباطنية، ثم إِلَى: قَد علمت بيض يَمِسْن ميسًا.

وهنا نعود إِلَى رسالة الْغُفْرَان، حيث يقول أَبُو الْعَلاَءِ على لسان ابْن الْقَارِحِ لِلْجِنِّي: "لله دَرُّك يا أبا هدرش... فكيف ألسنتكم؟ أيكون فيكُم عَرَبٌ لاَ يفهمون عن الرُّوم، ورُومٌ لاَ يفهمون عن العرب، كما نجدُ فِي أجيال الإِنس؟". فيقول "الجنِّي": "هيهات أيها المرحوم! إِنَّا أهلُ ذكاء وفِطَن، ولاَ بُدّ لأحدنا أن يكون عارفًا بجميع الألسن الإِنسيَّة، ولنا بعد ذَلِكَ لسانٌ لاَ يعرفه الأنيسُ"! أى إلاّ من هُوَ من جنس الجانّ، لسان خاصّ سرّىّ باطنىّ، فضلاً عن معرفة جميع الألسن الإِنسية. والجانّ فِي مُعْجَم أَبِي الْعَلاَءِ -كما قلت مرة- هم اليهود وهم الأعاجم وهم هنا الرُّوم وهم فِي مكان آخر النبط:

استنبطَ العُرْبُ لفظًا وانبرى نَبَطٌ
يُخاطبونك من أفواه أعرابِ

ملاحظات:

(١) النجيب هُوَ أحد الخيول العِتاق الْكَرِيمة الأصيلة غير المهجَّنة!"ن.س".

(٢) هنا أَيْضًا إشارة واضحة إِلَى مَا علمه الرجل من الأخطار الَّتِي قَد تتعرض لَهَا أعماله. "ن.س".

(٣) حَبْر اليهود هُوَ كاهن اليهود! "ن.س".

الفصل الثانى

أبُو الْعَلاَءِ داعية للثورة

إذا أغضب الخيل الشكيم فما لَهَا عليه اقتدار غير أزم الحدائد

أبُو الْعَلاَءِ

علينا أن نُعِدّ العدّة كاملةً للولوج إلى عالَم أَبِى الْعَلاَءِ، فلن نَلِجَ هَذَا العالم إلاّ إذا أحطنا بِهِ وبجميع أعماله من خلال قراءته المتكررة والصبور واليقظة! ولنأخذ بنصيحة أبِى تَمَّام -من قبل أَبِى الْعَلاَءِ- بأن لا نَمَلّ التكرار فِى قول الأول:

لو رأينا التوكيدَ خُطّة عجزٍ

مَا شفعنا الآذان بالتثويب

فالتثويب، أى التكرار أو الترديد، هُوَ لدى أَبِى الْعَلاَءِ كما لدى أبى تَمَّام، خطّة مقدرة لاَ عجز، ثُمّ هُوَ ضرورة لاَ بديل لَهَا ولا مفر مِنْهَا لإمكان التلقّى والفهم والكشف والاستيعاب، وذَلِكَ أمام الإغراب أو الإلغاز الّذى اضطُرّ إليه أَبُو الْعَلاَءِ وتعمَّده فِى نفس الوقت وإن لم يقصده لذاته بحال من الأحوال على سبيل استعراض العضلات كما أجمع على ذَلِكَ -ظلمًا وافتراءً- أغلب القدماء والمُحدَثين والمعاصرين، وَإِنَّمَا لجأ إليه عملاً بنصيحة أبِى تَمَّام أَيْضًا حين قال:

سنغرب تجديدًا لعهدك فِى البكا

فما كنت فِى الأيام إلاّ غرائبَا

فلنترك أبَا تمام فِى خرَسه وصمته هُوَ الآخر، يلوك الغيظ والغضب والحسرة كأَبِى الْعَلاَءِ ويعَضُّ الشَّكِيمَ ويمضغُ حديد اللّجام كآلاف بل ملايين من الشعراء والحكماء منذ أقدم العصور حَتَّى عصرنا هَذَا، لأن لأبِى تَمَّام أَيْضًا قصة طويلة تحتاج وحدها إلِى دليل منفرد!

ولقد رأينا فى ما سبق من حديث كيف أن أَبَا الْعَلاَءِ لم يكتفِ بالشكِّ فِى التُّرَاث الْعَرَبِىّ كله بين الفصحى والعُجْمَى والأصول والمنحولات، والمنسوخات والمقلوبات والمعكوسات والمبدَّلات والمدسوسات والمهموزات، بل وضع التُّرَاث الإنسانىّ كله والعالَمِىّ موضع الشَّكّ، وقدّم على ذَلِكَ الأدلّة والشواهد والحيثيَّات بِمَا فِى ذَلِكَ مَا تبقَّى من أعماله هُوَ نفسه الَّتِى لم تنجُ –بالضرورة– من عمليات الحذف والإضافة والتشويه والْمَحْوِ! وأقرُأُوا بأناة قوله فِى مقدِّمة اللزوميات: "... ومن الحركات: الإِشباع، وهو حركة الحرف الَّذِى بين ألف التأسيس وحرف الروِىّ فِى الشعر المطلَق، وذَلِكَ الحرف يُسَمَّى الدخيل، ويقال إن الخليل لم يذكر الإِشباع وإن سعيد بن مسعدة ذكرهُ، فيجوز أن يكون اسمًا وضعهُ، ويجوز أن يكون قَد تلقَّاهُ عمَّن قبلهُ من أهل العلم. وقد رُئِىَ فِى القوافِى كتاب للفرَّاء وكتاب لخَلَف بن حيان، فإِن لم يَخْلُوَا من ذِكر الإِشباع فهَذَا يدلّ علَى أن سعيد بن مسعدة أخذ هَذَا الاسم عن غيره، إِذ كان هَذَان الرجلان فِى القدم نظيره. ويجب أن يكون خَلَف مات قبله بمدّة طويلة، فأمَّا موته وموت الفرَّاء فمتقاربان، وهَذِهِ الأسماء الموضوعة لاَ يَعْقِلُ مِثْلَها سكان العمد (والعمد بيوت من الوبر يسكنها عرب البادية)! فإِن كانت تُلُقِّيَتْ عن العرب فيجب أن يكون من أُخذ عَنْهُ يعرف حروف المعجم (يقصد مُعْجَم العلماء لاَ مُعْجَم الْعَامَّة، أى المعجم الباطنى السرى

الشفرى) ويقرأ الصحف، وقد كان فيهم رجال يقرأون ويكتبون ويعرفون مواقـــع الحروف"!!

ثم يستطرد الإمام القائد المعلّم الضرير فيقول: "فأمّا الخليل وابنُ مسعدة فلم يذكراه (المجرى من بين الحركات)، وقد جاءت أشياء فِى الشعر القـــديم بعـــضها منصوب وبعضها مرفوع أو مخفوض، وَإِنَّمَا يُحمَل ذَلِكَ على الوقف، لأنه يبعدُ أن يقول عربيٌّ فصيح لَهُ علم بالشعر:

ألم تغـــتمضْ عينـــاك ليلـــةَ أرمـــدا

وعادَكَ من عَـــادَ الـــسليمَ المـــسهَّدَا

ثم يستطرد أَبُو الْعَلاَءِ فِى موضع آخر فيقول: "... فإذا انفتح مَا قبل الـــواو فِى مثل عَصَوْا، وغَزَوْا، وقَضَوْا، فالجماعة يجعلونها رَوِيًّا ولا يُجيـــزُون أن تكـــون وصلاً. وذَلِكَ مفقودٌ فِى أشعار الفصحاء. إِنَّمَا يجيء منه الشَّيْء النـــادرُ، ولعلـــهُ مصنوع، وليس على الشذوذ تعويل. ولا أعرف لأحد من أهل الفـــصاحة مثـــل أبيات مروان"!! يقصد مروان بن الحكم، ويشير إِلى القول المنسوب إِليه:

وهل نحن إِلاّ مثل مـــن كـــان قبلَنـــا

نَمُوتُ كما ماتُوا ونَحْيَا كَمَـــا حَيَـــوْا

مرة ثانية: مَاذَا أبقى أَبُو الْعَلاَءِ لمنهج الشَّكّ الديكارتى أو لطه حسين؟! وما الَّذِى يمكن -بعد هَذَا- أن ينجو من الشَّكّ؟! إننى أكرِّر هنا قول برتولد بريخـــت: "التشكك يزحزح الجبال، ومن بين كل مَا هُوَ يقينيّ نجد الشَّكّ أكثر يقينًا"!

نعم إِن الشَّكّ منذ الآن هُوَ الشَّيْء الوحيد الَّذِى لاَ شكّ فِيـــهِ! ولـــسوف يزحزح بِهِ أَبُو الْعَلاَءِ جبالاً وجبالاً -على طول اللزوميات بخاصّة- حتَّـــى يزلـــزل

عقولنا ويوشك أن يُورِثَنا الجنون بِمَا يكشف لنا من أهوال المتناقضات، بل يُغرِينــا بالانتحار لولا أنه يحثّنا على التماسك وعلى أن نتمالك أعصابنا وعقولنا وأنفسنا ونصبر ونطيل الصبر كما فعل هُوَ!

إن أبَا الْعَلاَءِ كلّم الناس رمزًا أكثر من أربعين عامًا منذ أن عاد من العــراق طريدًا إِلى المعرَّة حتَّى مات فِي الثمانين!

من حيثما نظرت فِي أقوال أبِي الْعَلاَءِ ستجد دَائمًا "الماس" أو "الْمَاسُــونِيَّة" بكل مشتقّاها وبكل حروفها المتشابهة والمشبَّهة والمتقاربــة والمتباعــدة والمبدَّلــة والمعكوسة والمهموزة. وكــذَلِكَ "موســى" و"الموســوية" وكــذَلِكَ "اليهــود" و"اليَهُودِيَّة"... ضمنًا أو مباشرة، تصريحًا أو تلميحًا، لاَ أستثنِي من ذَلِكَ شيئًا.

دعونا على سبيل المثال نستعرضْ بعض مَا يقوله فِي حرف السين:

- تَمَازَجَ بالعُرب الأعــاجمُ والتقــى
على الغــدر أنــواعٌ تــذم وأجنــاسُ
- تَــنَمَّسَ منّــا بالديانــة معــشر
وقد بطلت عنــد اللبيــب النــوامسُ
- يقولون إِن الــدين يُنــسخُ مثلمَــا
تولَّــت بإقبــال الحنيفــة فــارسُ
- وما حرصُهُ فِي العلم يدرُسُ كُتْبَــهُ
وقد شاهد الآثــار تُمحــى وتُــدرسُ
- قــام للأيــام فِــى أُذُنِــى
واعــظ مــن شــأنه الخَــرَسُ

- أنسلٌ إبليس أم حواء ويحُمُ
هَذَا الأنامُ ففِى أفعالهم دلَسُ
إن يؤمنوا لاَ يُؤدُّوا أو يكُن لهم
عزٌّ يضيموا وإن أعياهُمُ اختلسوا
- يستحسن القوم ألفاظًا إذا امتُحنت
يوما فأحسنُ مِنْهَا العيُّ والخرسُ
وآلُ إسرالَ غادوا فِى مدارسهم
تلاوة ومُحالٌ كُلُّ مَا درسوا
- وموّه الناس حَتَّى ظَنَّ جاهِلُهُم
أن النُّبُوَّة تمويهٌ وتدليس
- أضعتَ شَاءً جعلتَ الذئبَ حارسه
أما علمت بأن الذئب حرّاسُ
- تعلّم الكُفرَ أُولاهم وآخِرُهُم
فكل أرضٍ بِهَا جمع ومدارسُ[1]
وعن قليلٍ يصيرُ الأمرُ منتقلاً
عنهُم وتخفتُ للأجراس أجراسُ
- وما حمدى لآدم أو بنيه
وأشهدُ أن كلهُمُ خسيسُ
وزوجُك أيها الدُّنيا تمَنَّى
طلاقك قبل أن يقع المَسيسُ

- بنـــاتُ العـــمِّ تأباهـــا النَّـــصّارى

وبـــالأخوات أعرســـت **المَجُـــوسُ**

- وَمَتَى ركبـــتَ إلى الديانـــة **غالَهَـــا**

فِكَرٌ على حُـــسن الـــضمير **دســـائسُ**

والعقـــلُ يعجـــبُ والـــشرائعُ كلُّهـــا

خـــبر يُقلّـــدُ لم يقِـــسْهُ قـــائسُ

مُتمَجِّـــسُونَ ومـــسلمون ومعـــشر

متنـــصِّرون **وهائـــدون** رســـائسُ[2]

وبيـــوتُ نـــيران تُـــزارُ تَعَبُّـــدًا

ومـــساجدٌ معمـــورة وكنـــائسُ

والـــصابئون يُعظمـــون كواكبًـــا

وطباعُ كُلٍّ فِـــى الـــشرور حبـــائسُ

- ظلـــوا كـــدائرة تحـــوَّل بعـــضها

مـــن بعـــضها **فجميعُهـــا معكـــوسُ**

- شَـــرُّ أشـــجارٍ **علمـــتُ بِهَـــا**

شَـــجَرَاتٌ أثْمَـــرَتْ **ناسَـــا**

حملـــت هـــضًا **وأغربـــةً**

وأتـــت **بـــالقوم أجناســـا**

- قالت معاشـــرُ لم يبعـــث إلهُكُـــمُ

إلى البريـــة عيـــساها ولا موســـى

وَإِنَّمَــا جعلــوا للقــوم مأكلــةً
وصــيَّروا لجميــع النــاس ناموســا
ولو قدرتُ لعاقبــتُ الــذين طَغَــوْا
حَتَّى يعود حليــفُ الغــيِّ مرموســا
- داءُ هَذَا الأنــام لاَ يقبــل الطــبَّ
وقــــدما أراه داءً نجيــــسا
فكَــرٌ حــسَّنَتْ لقــومٍ أُمــورًا
فاســتجازوا التهويــد والتمجيــسا
- وصار دمُ الديك المــؤذِّن سُــحره
لأهل المغاني حُــسوة لفــم الــنمسِ
- ولبسك ثوب السقم أحسن منظــرًا
وأبهج مــن ثــوب الغــويّ المــنمّس
- تداعت بلفظ العُجم أعرابُ مذحِجٍ
وأعــرب أهــلاً فــارس وخُــراسُ
- ترومون بالناموس كسبًا فــسعيُكم
إذا لاحت الأطمــاعُ ســعيُ نمــوس
- فَتَــوَقَّهُمْ مــن أســوَدٍ أو أبــيَضٍ
أو اسمَــرٍ مَــا بــين ذَيْــنِ مُحَــنَّسِ
- نُسِخَ المعاشــرُ فالغــضنفرُ ثعلــبٌ
فِــي لؤمــه والنــاسُ كالنــسناس

وتفكرت نفـــس اللبيـــب وقـــد رأت
أشُخوصُ جـــنٍّ أم شُـــخوصُ إنـــاس
عُـــرب وعجـــم دائلـــون وكلنـــا
فِى الظلـــم أهـــل تـــشابه وجِنَـــاس
- يكفيـــك طعـــمٌ جنـــسُهُ واحـــد
أطعمـــــة ضـــرَّت بتجنيـــــسها
- أتُـــضَحِّى بـــالْهَمِّ أم أتُمَـــسِّى
وتقـــضِّى مـــن الخطـــوب التماســـى

وتتداعى القافية من **الهماس** إلى **الشماس** إلى **عماس** إلى **الهرماس** إلى **المياس** إلى **التماسي** -ثانية- إلى **الأرماس** إلى **الغماسى**، إلى أن يقول:

أيُمَـــا طـــارقٍ أصـــابك يـــا طـــا
رِقُ حَتَّـــى مـــسَّاك للغـــيِّ ماســـى

ثم إلى **الشماس** -مرة أُخْرَى- وإلى **الأخماس**، إلى **الديماس**: ها هنا مَا تريـــد قَد ظهر الأمر الَّذى قبل فِى **الديماس**، إلى أن يعلمك فنّ العكـــس والتعـــاكس - تكتيك الماسون-:

- وكذا **الجمر** مثله **الرجم** قَد ميـــ
ـــزَ بلفـــظ **مغيَّـــر معكـــوسِ**
- مَا النَّحْو والـــشعر والكـــلامُ ومـــا
مُـــرقَّشٌ والمُـــسيَّبُ بْـــنُ عَلَـــسْ

بِهَذَا ومثيله أكثر مِمَّا لاَ يتسع لَهُ أى نطاق فِى حرف السين وفِى سائر حروف المعجم، يتضح لِمَاذَا قال الرجل:

أرى الحى جنسًا ظلّ يشمل عالمى
بأنواعه لاَ بورك النوع والجنس

وهو الَّذِى يقول أيْضًا:

مَا خصّ مصرًا وَبَأٌ وَحْدَهَا
بل كائن فِى كلّ أرضٍ وَبَأْ

وما دام الوبَأُ أو الداء قديمًا قِدَم الأزل وكائنًا فِى كل أرض وكل زمان ويشمل العالَم كله ويعمُّ البَشَرِيَّة بعامَّة بشتَّى ألوانها وأشكالها وأجناسها وفضائلها، أسود وأبيض وأسمر بين ذَلِكَ لاَ يهم، وما دامت كل الأزمنة يومًا واحدًا هُوَ السبت وذَلِكَ فِى الماضى والحاضر والمستقبل -مَا لم تنته لعبة التنكُّر والتقمُّص والانسلاخ ويوضع لَهَا حدٌّ- ما دام الأمر كذَلِكَ فقد أخذ على عاتقه مهمة كشف اللعبة ووضْع الحدِّ لَهَا منذ تولَّى قيادة الْكَتِيبَة الْخَرْسَاء، ولذَلِكَ ليس أَبُو الْعَلاَءِ من أنصار الثورة ضدّ الأعداء فِى البلد الواحد وإنَّما هُوَ من دُعَاة الثورة العالمية الْعَامَّة الَّتِى تشمل أَيْضًا كلَّ الأنواع والأجناس والفصائل البَشَرِيَّة وفِى جميع بلدان وأنحاء العالَم!

انظروا إلى أىّ مدًّى طُمُوح الرجل ومدى تفاؤله رغم بشاعة الصورة الَّتِى كشفها وسيكشفها هُوَ نفسه، ورغم أنها تبدو باعثة على اليأس والإحباط وتبدو مُحَالَةً ولا معقولة، ولذا قال:

لو قِيلَ لم يبقَ سوى ساعة
أمَّلْتُ مَا تعجز عَنْهُ سَنَةٌ

إلى هَذَا الحدِّ كان تفاؤله هُوَ الَّذِى اتُّهم وطوال ألف عام بتهمة التـشاؤم! وتكتيكه ولغته وأسلوبه وذَلِكَ على أيدى الرواة والنَّقَلَة والشُّرَّاح والنُّقَّاد والباحثين والدارسين، القدماء منهم والمحدَثين والمعاصرين. ولكم تُلِحُّ عَلَىَّ هنا كلمات إنجيلية شهيرة: "أما قرأتم قطّ فِى الكتب: الحجر الَّذِى رفضه البنّاؤن هُوَ قَـد صـار رأس الزاوية"! فها هُوَ الضرير يقود كتيبة بل كتائب المبصرين، وها هُوَ "زعيم التشاؤم" يصير أكبر داعية من دُعاة التفاؤل، وها هُوَ الرجل المرفوض يصير الرجل المفروض!

* * *

ملاحظات:

(١) المدارس لليهود موضع تُقرأ بِهِ التوراة!!"ن.س".

(٢) أى أن الماسون فِى جميع النِّحل والصور، أما ذكر "الهائدون" هنا -أى اليهود- فهو من سبيل التمويه والمناورة لأن الْمَاسُونِيَّة هِـىَ الـدين السرِّى لليهود، وسيفعل هَذَا مرارًا. "ن.س".

(٣) الكلمات الَّتِى بالبنط العريض والتى يتضمنها الفصل الماثل من وضـع نَجِيب سُرُور نفسه.

الفصل الثالث
الْكَتِيبَةَ الْخَرْسَاء

يكرِّرني ليفهمنِي رجالٌ كما كررت معنًى مستعادًا

أبو الْعَلاَء

فِي مستهل لزوم مَا لاَ يلزم –حرف الهمزة– وبعد تمهيد قصير يرسم بِهِ أبُو الْعَلاَءِ صورة العصر كاشفًا تناقضاته وموحِّدًا أحيانًا بين المتناقضات، مُمَهِّدًا بذَلِكَ نفس وعقل القَارِئ للتَّلقِّي والفهم، وبعد أن يقول:

وما نوبُ الأيـــام إِلاّ كتائـــب
تُبث سرايا أو جيـــوش تُعبـــأ

يطرح أبُو الْعَلاَءِ المشكلة أو الْمُهِمَّة الَّتِي سيتفرغ لَهَا فِي ســجنه أو منفــاه بالمعرة حَتَّى يموت، والتي سيورثها أنصاره ومريديه فِي حياته وبعد مماتــه، والــتي سيضرب لانجازها موعدًا مقداره ألف عام، كما أشار إِلَى ذَلِكَ مرارًا. يقول أبُــو الْعَلاَءِ:

يرتجـــي النـــاسُ أن يقـــومَ إِمـــامٌ
نـــاطقٌ فِـــي الْكَتِيبَـــة الْخَرْسَـــاء
كذب الظن لاَ إِمام سوى العقـــ
ـــلِ مشيرًا فِي صُـــبحه والمـــساء
فإِذا مَا أطعتـــه جلـــب الرحـــ
ـــمَةَ عنـــد المـــسير والإِرســـاء

إِنَّمَـــا هَـــذِهِ المـــذاهب أســـبا
بٌ لجـــذب الـــدنيا إِلى الرؤســـاء
غـــرضُ القـــوم مُتعـــة لاَ يرقـــو
ن لـــدمع الـــشيماء والخنـــساء
كالَّذِى قام يجمعُ الـــزنج بالبـــصـــ
ـــرة والقرمطـــىّ بالإحـــساء

الْكَتِيبَة الْخَرْسَاء، تلك هِىَ حزب أَبِى الْعَلاَءِ، وهى البديل المطـروح فِـى مواجهة "نُوَب الأيام وسراياه المنبثّة وجيوشه المعبَّأة"... أى الأحزاب والحركـات والمذاهب والملل والنِّحَل والفرق والطوائف، كحركـة الـزنج أو كالقرامطـة، باعتبارها جميعًا تجمُّعاتٍ يهوديَّةً -كما سيتضح فيما بعد- أو تسلل إليها اليهـود وحرَّفوها عن طريقها كما سيتضح أَيْضًا، ثم لأنها لاَ تفعل أكثر من أن تجلب الدنيا إِلى الرؤساء الذين تتناقض دَائمًا شعاراتهم مع أعمالهم.

ولكن أَبَا الْعَلاَءِ إِذ يُفْشِى سرَّ الْكَتِيبَة الْخَرْسَاء فِى أول الأبيات المـذكورة عاليه إِنَّمَا يوحى إِلينا أَيْضًا بأن هَذِهِ الْكَتِيبَة سابقة على أَبِى الْعَلاَءِ نفسه، فإن صحّ هَذَا -وهو صحيح- فما الَّذِى أضافه أَبُو الْعَلاَءِ؟!

الحقّ أنه أضاف الكثير! فالْكَتِيبَة كانت من قبلُ تتبع الظنّ والوهم بأن تنتظر ظهور الإمام الناطق، الإمام الفرد، الإمام المهدىّ المنتظَـر أو المـستبدّ العـادل أو المخلّص فِى حلم طوباوىٍّ جميل لاَ يتحقق أبدًا من جيل إِلى جيل ولا من عصر إِلى عصر. فجاء أَبُو الْعَلاَءِ ليقول: ليست القضيَّة قضيَّة انتظار واهم حـالم لمخلّـص منشود، وإِنَّما هِىَ بثُّ السرايا وتعبئة الجيوش واتّباع العقل لاَ الظنّ فِى التدبير مـا

دامت الحركات المُعادِيَة حركات منظَّمة وسرِّيَّة وباطنيَّة. نعم لاَ يفل المكرَ إلاّ المكرُ، والذكاءَ إلاّ الذكاءُ، والخبثَ إلاّ الخبثُ، والسِّرِّيَّةَ إلاّ السِّرِّيَّةُ، والتنظيمَ إلاّ التنظيمُ. وإذا كان ميعاد الحركات المُعَادِيَة كلها بعد ألف عام على أرض الميعاد، فلتكُن المواجهة بعد ألف عام على أرض الميعاد "إن صَدَقَ الوعد فكيف لاَ يصدق الوعيد" كما يقول. إذن فلنعبِّئ لِهَذِهِ المواجهة قُوَانا، كتائبَ وسرايا وجيوشًا خُرْسًا. يضرب أَبُو الْعَلاَءِ موعدًا للقاء فِي أكثر من مكان.

إننِى أستبق الحديث عمدًا لأوفِّر على القَارِئ مشوارًا طويلاً فِى البحث والمراجعة والمعاناة، لأنِى أعلم أن قِلَّةً من القراء فِى عالَمنا الْعَرَبِىّ هِىَ الَّتِى تصبر على قِرَاءَة التُّرَاث. إن أَبَا الْعَلاَءِ منذ الآن سينذر نفسه لِمَهَمَّة المسير والإرساء، وسيرسم لكتيبته الْخَرْسَاء خُطَّتها وبرنامج عملها وطريقة العمل، وسيحدِّد لَهَا الواجبات والالتزامات والمهامَّ بين التكتيك والاستراتيجية، وسيحدد طريقة تجنيد العضو من أعضاء الْكَتِيبَة الْخَرْسَاء وطريقة تربيته والشروط الواجب توفُّرها فِيه ودرجات ومستويات ومراتب الأعضاء. وسيستخدم فِى ذَلِكَ وعلى طول اللزوميات الضمائر الثلاثة، المتكلم والمخاطب والغائب، بذكاء منقطع النظير. وعليك أنت أن تكتشف من الَّذِى يتكلم، ولمن، وعمَّن، وعن مَاذَا... وسيحاول جهده أن يُطهِّر أعضاء الْكَتِيبَة من الأوثان الوهميَّة والعقليَّة والنفسيَّة والاجتماعيَّة والسياسيَّة والوراثيَّة. وسيكرِّر نفسه بإلحاح غريب ونادر وعنيد، وسيكلِّف أعضاء الْكَتِيبَة أن يكرِّروه ليفهموه لأنه لَمْ يَكُن ليستطيع أن يكون أكثر صراحة وإلاّ عرَّض نفسه للسيوف والصلبان، ولَمْ يَكُن فِى نفس الوقت ليستطيع أن يتخلى عن رسالته ودوره ومهمَّته وإلا لانتحر كما حاول فعلاً مرة. من هنا كان غموضه النسبيُّ وكانت المشقَّة فِى قراءته، لاَ لأنه حريص على حياته، فهو القائل:

من باعني بحياتي ميتةً سـرحا
بايعتُه وأهان الله مـن نَـدمَا

وإنَّما لأنه حريص -كما قلت- على أداء رسالته وإيصالها واستمرارها وكفالة جميع الضمانات لإنجازها وتجنيب مسيرة الْكَتِيبَة الْخَرْسَاء جميع احتمالات الخطأ والفشل والانحراف والشغب، جميع المحاذير أو المعوّقات أوالمفاجآت على طول زحفها منذ المسير حَتَّى الإرساء منذ بداية الزحف حَتَّى يوم المواجهة المنشود.

فيما هُوَ يكشف للكتيبة الْخَرْسَاء عن خُطَطِ وحِيَلِ جميع الحركات الْمُعَادِيَة الَّتِي هِيَ فِي واقعها -كما قال فِي أكثر من مكان- حركات مَاسُونِيَّة يَهُودِيَّة أصلاً:

لهم حيل فِي حربهم مَا اهتدت لَهَا
جديسٌ ولا ساست بِهَا الملكَ جُرهمُ

فيما هُوَ -على طول اللزوميات- يشكِّك فِي كل شيء بلا استثناء ممَّا قاله أو قَصَّه أو نقله الرواة، فاضحًا جميع الإسرائيليات والأصابع الإسرائيلية الَّتِي مسخَت وشوّهَت وحرَّفَت وأبدلت كل شيء وعبثت بالأديان والمذاهب والأحزاب، إلخ.

وكذَلِكَ يقول قبل الأبيات المذكورة:

أعللت علة قال وهْيَ قديمةٌ
أعيا الأطبَّةَ كلَّهم إبراؤُها

ويقول:

فَهِمُ الناسِ كالجهول وما يظـ
ـفر إلاّ بالحسرة الفُهَمَاء

ثم هُوَ سيسوق فِي اللزوميات حاشية السيرة الذاتية، فيحكى أحيانًا عن تَجَارِبه وعن حياته الْخَاصَّة، ليصحِّح مَا يُقال أو مَا سوف يُقال عَنْهُ من افتراءات فِي حياته وبعد مَمَاته.

أقول سيكرر أَبُو الْعَلاَءِ هَذَا كلُّه على طول اللزوميات وسيكلِّف القَارِئ غيرَ الملول وغير المتعجل أن يكرِّر قراءته ليفهم عَنْهُ. ويَمَلُّ هُوَ نفسه التكرار ويوشك أن ينحدر إِلى اليأس، ثم يعود فيتماسك ويصبر ليستأنف بثَّ تعاليمه، صريحًا تارة ومتخفيًا تارات، طالبًا من تلاميذه ومريديه وأنصاره وأعضاء حزبه أن يتفرقوا وينتشروا فِي العالَم المعروف حينذاك ويحملوا رسالته إِلى شتَّى أرجاء الأرض ويُعِدُّوا العُدَّة من رباط الخيل للمواجهة الحتميَّة القادمة:

فما حبس النفسَ المسيحُ تعبُّدًا
ولكن مشى فِي الأرض مشية سائحِ

أما هُوَ فمجبَر بحكم عَمَاه وعجزه على لزوم محبسه، أو محبسَيه، أو الثلاثة المحابس:

أراني فِي الثلاثة من سُجوني
فلا تسأل عن الخبر النبيثِ
لفقدى ناظرى ولزوم بيتى
وكون النفس فِي الجسد الخبيث

فإذا انتقلنا إِلى رسالة الْغُفْرَان وجدناه يشير فِي أكثر من مكان إِلى هَذِهِ الْكَتِيبَة وإِلى حِيَل وخطط الإعداد مِمَّا لاَ يتسع لَهُ هَذَا النطاق وبخاصَّة على لسان

الجنِّ فِي لقائهم مع ابْن الْقَارِحِ، إلى أن يقول صراحةً لابْن الْقَارِحِ: "ودنانيره بإذن الله مقدَّسات... وإن كانت زائدة على الثمانين، فقد أوفت على عدة أصحاب موسى الذين جاء فيهم: [وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً لِّمِيقَاتِنَا]، وعلى عدَّة الاستغفار فِي قوله تعالى: [إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَهُم]، وعلى عدَّة أذرُع فِي السلسلة فِي قوله تعالى: [ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعاً فَاسْلُكُوهُ] ".

وواضح أن عَدَدَي الثمانين والسبعين عددان رمزيَّان شفريَّان ولا يعنيان العدد الحقيقي، وهَذَا مَا يقوله أَبُو الْعَلاَءِ بعد ذَلِكَ مباشرة. ولكن المهم أن هَذهِ الدنانير -هَذهِ الْكَتِيبَة- تتخذ من مصر بالذات مركزا لَهَا. وهَذَا مَا يوحى بِهِ قول أَبِي الْعَلاَءِ قبل ذَلِكَ مباشرة: "وسرَّتنى فيئةُ الدنانير إليه، فتلك أعوان، تشتبه منْهَا الألوانُ، ولَهَا على الناس حقوق، تبرّ إن خيفَ عقوق. قال عمرو بن العاص لمعاوية (ابن أبي سفيان): رأيت فِي النوم أن القيامة قَد قامت وجيء بك وقد ألجمك العرقُ. فقال معاوية: هل رأيت ثم من دنانير مصر شيئًا؟ وهَذهِ لاَ ريب من دنانير مصر"!

أما قصة أَبِي الْعَلاَءِ مع مصر بالذات فتحتاج وحدها إلى بحث طويل مَا بين سقط الزند واللزوميات ورسالة الْغُفْرَان فله عَنْهَا كلام أكثر من أن يقع فِي حصر. وأَعِدُ بأن أُفرِد لَهُ مقالة منفردة، ولكن حسبى هنا أن أشير إلى قوله:

إن نال من مِصْرٍ قضاءٌ نازلٌ
فمصير هَذَا الخلقِ شرُّ مصيرِ

وقوله:

تثوى الملوكُ ومِصْرٌ فِى تغيُّـــرهِم
مصرٌ على العهد والإحساء إحساء

وقوله:

مَا خصّ مـــصرًا وَبَـــأٌ وحـــدها
بل كائنٌ فِـــى كـــلٍّ أرضٍ وَبَـــأٌ

وننتقل إِلى رسالة ابْن الْقَارِحِ فنراه يلمح كـــثيرًا إِلى المدســـوس والمنحـــول والمصحَّف، ويحكى الحكاية التالية عن أَبِى الْفَرَجِ الزهرجى: "لقيتُ أَبَـــا الْفَـــرَجِ الزهرجى بآمد ومعه خزانة كُتُبِهِ، فعرضها عَلَىَّ فقلتُ: كُتُبُكَ هَذِهِ يَهُودِيَّـــة، قَـــد بَرِئَت من الشريعة الحنيفيَّة. فأظهر من ذَلِكَ إِعظامًا وإِنكارًا، فقلت لَهُ: أنت علـــى الْمجرِّب، ومثلى لاَ يهرفُ بِمَا لا يعرف، وأبلغ تيقن. فقرأ هُوَ وولدُه وقال: صـــغر الخُبرُ (الاختبار) الخبر. وكتب إِلَىَّ رسالة يُقرِّظُنى فيها بطبعٍ لَهُ كريمٍ، وخُلُقٍ غـــير ذميمٍ".

وهو يقدم ثبتًا طويلاً بِكُتُبٍ ضاعت أو سُرِقَتْ أو خُبِّئَت، ثم يحثُّ أَبَا الْعَلاَءِ على أن يتخذ فِى مبدأ دعوته أسوة فِى صحابة النبىِّ، ومنهم عُتبة بن غزوان: "كان عُتبة بن غزوان يقول إِذا ذُكر البلاء والشدّة الّتِى كانوا عليها بمكّة: لقد مكثنا زمانًا مَا لنا إِلاّ ورق البشام (شجر طيب الريح يُستاك بِهِ، ولا ثمر لَهُ)... أكلنـــاه حَتَّـــى تَقَرَّحَتْ أشداقُنا، ولقد وجدتُ يومًا تمرةً فجعلتها بينى وبين سعد بن أبى وقاص بن أهيب الزهرى، وما منَّا اليوم أحد إِلاّ وهو أمير على كُورة".

ثم دعوة النبي الَّتي بدأت ضعيفة ثم مَا لبثت أن قَوِيَت وانتشرت، متنبئًا بذَلِكَ -ضمنًا- لدعوة أَبِي الْعَلاَءِ.

أَبو الْعَلاَءِ إذن قائد كتيبة وصاحب دعوة وفَيْلَسُوف ومنظِّم ومنظِّر ومخطِّط لحركة لَمْ يَكُن لَهَا منذ ألف عام إلاَّ أن تلتزم التخفِّي والسِّرِّيَّة.

فما تكتيك تلك الحركة؟

وما استراتيجيتها؟

وما تعاليمها ومبادئها وأُسُسُها ومنطلقاتُها؟

ومن أعداء أَبِي الْعَلاَءِ؟

وأين هَذِهِ الْكَتِيبَة الآن؟ وهل صُفِّيَت على مدى ألف عامٍ من الخيانات أم مَا زَالت تتحرك تحت الأرض؟

لو أنا التفتنا إِلى أَبِي الْعَلاَءِ منذ زمن طويل واكتشفنا سرَّه لَمَا أُخذنا على غرَّة ألوف المرات، ولو أننا صُنَّا تراثنا وطهَّرناه من المدسوس والمصحَّف -الإسرائيليات- لعرفنا أعداءنا من أصدقائنا، فضلاً عن معرفتنا لأنفسنا، ولواجهنا خُطَطَ الأعداء بنفس المكر والخبث والذكاء ونِمْنا بعيون مفتوحة يقظة. ولعرفنا أن الذكاء الْعَرَبِيّ يُزْرِي كثيرًا بأسطورة الذكاء الإسرائيلي، ولكن دَائمًا يفوت الأوان.

إن الفعل والفكر العالَمِيَّ لم يَلْقَ مثلما لقي العقل والفكر الْعَرَبِيّ بالذات من صنوف الاغتيال البدنيّ والرُّوحِيّ والقهر والحجْر والمحاذير والقيود والمطاردة والتشريد والتجويع، إلخ.

لا غرو أن نعيش الآن فِي ظلّ شلل فكريّ شامل ورهيب، حتَّى فقدنا الثقة بأنفسنا وبماضينا وحاضرنا ومستقبلنا، بل وفقدنا حتَّى بمجرَّد غريزة الدفاع الشرعيّ عن النفس. ولكن لاَ داعي لأن نستبِقَ الحديث.

إن علينا أن نتابع رحلتنا مع أَبِى الْعَلاَءِ، وسيأتى كل شــىء فِــى حينــه. وسنكتشف أن بروتوكولات حكماء صهيون مثلاً -وهى الصيغة القريبة والحديثة أو المعاصرة لمخططات الْمَاسُونِيَّة، أى الْيَهُودِيَّة، أى الصهيونية، إلى آخر مَا يتفتــق عَنْهُ الخبث اليهودىّ من أقنعة وألوان وجلود- أقول إن البروتوكولات هِىَ الصيغة القريبة والحديثة أوالمعاصرة لِهَذَا المخطط الموجود تقريبًا -وبطريقة رمزيــة- فِــى التُّرَاث الفكرىّ كله على مدى العصور، ولكن المفاجأة حقًّا هِىَ أنه موجود أَيْــضًا فِى سقط الزند ولزوم مَا لاَ يلزم ورسالة الْغُفْرَان والفصول والغايات!

الفصل الرابع
حملة أبى الْعَلاَءِ على الْمَاسُونِيَّة

"لقد اتُّهِمْتُ فِى مناسبات مختلفة بأننى متشائم، وهكذا أنا فى ما يتعلق بعدم إيمانى بأن الْمُثُل الإنْسَانية العليا مطلَقة. ولكننى فِى الوقت ذاته متفائلٌ فى ما يتعلق بإيمانى التامِّ المطَّرِد بقدرة الْمُثُل العليا على الذيوع والتطور"!

هنريك إبسن

استطرادًا فى ما سبق من حديث، وقبل أن نصل إلى قصة الْمَاسُونِيَّة والموسوية واليَهُودِيَّة كما يتلوها الإمام الضرير فِى رسالة الْغُفْرَان وغيرها من أعماله النَّثْرِيَّة والشِّعرِيَّة، يحسن بنا أن نتأمل الأبيات التالية الَّتى نتعمد أن نستبق بِهَا الحديث -وإن كنا سنعاود الرجوع إليها فِى أمكنة أُخْرَى- لكى نُعِدَّ أنفسنا ونُعِدَّ القارئ الذكى للولوج إلى عالَم أَبِى الْعَلاَءِ، فسوف نَلْقَى فِى هَذَا العالَم -كما يلقى أبطال الأساطير- أشياءَ وكائنات ورموزًا وطلاسمَ خرافيَّةً ومَهُولَةً يجب مع ذَلكَ أن لا تغرينا بالهرب من هَذَا العالَم أو بالزهد أو الكسل أو الجُبن أمام صاحب هَذَا العالَم!

تقادَمَ عمر الدهر حتَّى كأنما
نجوم الليالى شيب هذى الغياهب

يهـــودُ بـــاغى الحـــاجّ والليـــلُ مـــسلم

علـــى كُفـــره والأرضُ فِـــى زِىّ راهـــب

تـــألّفُ غـــى النـــاس شـــرقًا ومغربًـــا

تكامـــل فـــيهم بـــاختلاف المـــذاهب

- داء الحيـــاة قـــديم لاَ دواء لَـــهُ

لم يخـــل بقـــراط مـــن ســـقم وأوصـــاب

تلـــك اليهـــودُ فهـــل مـــن هائـــد لهُـــمُ

والـــصابئون وكـــلٌّ جاهـــل صـــابى[1]

- اســـتنبط العُـــرب لفظًـــا وانـــبرى نـــبط

يخاطبونـــك مـــن أفـــواه أعـــراب

كلمـــتُ بـــاللحن أهـــل اللحـــن أنفُـــسهُم

لأن عـــيى عنـــد القـــوم إِعـــرابى

فلنقف هنا قليلا لنذكر قول أبي تمام:

لمدينـــة عجمـــاء قَـــد أمـــسى البلـــى

فيهـــا خطيبًـــا باللـــسان المعـــرب

وقوله أيْضًا:

ســـكن الكيـــد فـــيهم إن مـــن أعـــ

ـــظم إِرب ألا يُـــسمى أريبًـــا

مكـــرُهُم عنــــدهُ فـــصيح وإن هُـــم

خـــاطبوا مكـــــرهُ رأوهُ جليبـــــا

ثم قول المتنبّي:

ولكـــــنّ الفـــــتى الْعَرَبِـــــيّ فيهـــــا

غريـــــب الوجـــــه واليـــــد واللـــــسان

وقوله:

ملاعـــــب جنّـــــة لـــــو ســـــار فيهـــــا

ســـــليمانٌ لـــــسار بترجمـــــان

ثم نرجع إلى أبِي الْعَلاَءِ:

- ترائبي وهـــي مغـــنى السسر مَـــا علمـــت

بِـــهِ لـــدىَّ فهـــل نالتـــه أترابِـــي

- كـــلّ الّـــذِي تحكـــون عـــن مـــولاكُمُ

كـــذب أتـــاكم عـــن يهـــود يُحـــبرُ

رامـــت بِـــهِ الأحبـــارُ نيـــل معيـــشةٍ

فِـــي الـــدهر والعمـــلُ القبـــيح يتـــبرُ

- مـــن أعجـــب الأشْـــيَاء فِـــي دهرنـــا

والله لاَ نـــــاس ولا والـــــثُ

اثنـــان بانـــا فـــى فـــراش معًـــا
فأصـــــبحا بينــــهما **ثالـــــثُ**

- ولحـــب **الـــصحيح** آثـــرَت الـــرو
مُ إنتــــساب الفــــتى إلى **أمهاتـــــهْ**
جَهِلـــوا **مَـــن أبــــوهُ** إلاّ ظُنونًـــا
وطـــلا الـــوحش لاحـــق بمهاتـــهْ

- فمـــا أمنـــت نـــسوان قـــوم أعـــزّة
علـــى عزِّهـــا أن تُـــستباح فروجهـــا

- وهل أبيحت نـــساء القـــوم عـــن عُـــرض
للعُـــــرب إلاّ بأحكـــــام النبـــوّات

- وقـــد كـــذب **الـــصحيح** بـــلا ارتيـــاب
فهـــل صـــدق **الأصـــم** أو **الأشـــجّ**(٢)

- ولا تقبلـــوا مـــن **كـــاذب** متـــسوق
تحيَّـــل فِـــى نـــصر **المـــذاهب** واحتجـــى

- وكفرهـــا ليـــل **ترهـــب** شُـــبهه
تخال يهـــودًا عـــاق عـــن ســـيرها **الـــسبتُ**

- إذا افتكـــر الإنْـــسَان فِـــى أمـــر دينـــه
بـــدا نبـــأ يـــثنى الحجـــى وبـــه كبـــتُ
فهـــل خَبَـــرٌ عـــن أنفـــس بـــان وفـــدها
إلى ألـــه معمـــور بأجـــسامها الخبـــتُ

- فمـــا عـــذرى **وعنـــد** الله علمـــى
إذا كـــذبت قوائـــل **مـــسندات**ُ

- ولعـــل **عكـــسًا** فِـــى الليـــالى كـــائن
فتعـــود فِـــى الـــشرفات متّـــضعاتِها

- ولا تطلبـــنّ اللبـــابَ الـــصريح
فقـــد **ســـسيط** عالمنـــا وامتـــزج

- أرى هـــذيانًا طـــال فِـــى كـــل أمـــة
يـــضمنه **إيجازهـــا وشـــروحها**

- ومـــن تأمَّـــل أقـــوالى رأى جُمـــلاً
يظـــل فـــيهن ســـرُّ النـــاس مـــشروحا

- ولقـــد علـــم المـــنجم مَـــا يوجـــب
للـــــدين أن يكـــــون صـــــريحا

- قَـــد نُـــسخ الـــشرع فِـــى عـــصورهم
فليتـــهم مثـــلَ شـــرعهم نُـــسخوا

- وجدنا اتباع الشرع حزمًـــا لـــذى النـــهى
ومـــن جـــرَّب الأيـــام لم ينكـــر النَّـــسْخَا
فمَـــا بـــالُ هَـــذَا العـــصر مَـــا فِيـــه آيـــة
من المـــسخ إِن كانـــتُ يهـــودٌ رأت مـــسخا

- فإِن كنـــت ذا لُـــبٍّ مـــتين فـــلا تقِـــسْ
بحمـــصك والميمـــاس دجلـــة والكرخـــا

- لَعَـــلّ نجـــوم الليـــل تُعْمِـــلُ فكرهـــا
لـــتعلم ســـرًّا فـــالعيون ســـواهدُ

- عفاة القوافِى كالَّذِى ولُماتها
إذا هُنّ لم يوصلن فاللفظ فاسدُ

- لو يفهم الناسُ مَا أبناؤهم جلب
وبيع بالفلس ألف منهُمُ كسدوا

- والناس فى الأرض أجناسٌ مُقلَّدة
كالهدى قُلِّد لم يذعرهُ تهديدُ

- سِرٌّ قديمٌ وأمرٌ غير متضح
فهل على كشفنا للحق إِسعادُ

- أليس قريشكم قتلت حُسَيْنًا
وصار على خلافتكم يزيدُ

- كن من تشاء مهجَّنًا أو خالصًا
وإِذا رُزقت غِنًى فأنت السيدُ

- قَد شُيِّد القصر لسكانه
وغير من يسكنه الشائذ

- يجمـــع الجـــنس شـــريفا ولقـــى

كحديـــد منـــه ســـيف وجلـــم

كفانا هَذَا مؤقتا!!

وهنا أذكر أن للعقّاد كتابا بعنوان "إبليس" وعد في مقدمته بأن يختمه بفصل عن "الْمَاسُونِيَّة"... ولكن الكتاب صدر دون هَذَا الفصل ونسى حاذفهُ الإشـارة الواردة عَنْهُ فِى المقدمة، فمن الّذِى حذف؟! ولحساب من؟!

ثم نرجع إِلى أَبِى الْعَلَاء:

إن أكلتم فضلاً وأنفقـتمْ فـضـ

ـلاً فـلا يـدخلنَّ والٍ علـيكم

لاَ تُوَلُّـوا أمـوركم أيـدىَ النـا

س إذا رُدَّت الأمـورُ إلـيكم

أما الخطاب هنا فواضحٌ أنه موجَّه إِلى الْكَتِيبَة الْخَرْساء.

نعم، الحذر كل الحذر من السلطة!

- وهجّن لذاتِ الملـوكِ روالُهـا

كما غدرت بالمنـذرين الهجـائنُ

- تشابه النجر فـالرومىّ منطقـه

كمنطق العُرب والطـائى مرطـانُ

– والسر ليس بمخزونٍ على أحــد
لكــن تكــاثَرَ للأمــوال خُــزَّانُ

– إذا فاتهم طعن الرماح فمحفــل
ترى فِيهِ مطعونًــا عليــه وطاعنــا

– أحلل بمن شئت لاَ يعدمك نائبــة
خان اليمــانون طُــرًّا والــشآمونا

ثم ننتقل إِلى رسالة الْغُفْرَان لنسمع بعضًا من قصّة الْمَاسُونِيَّة على لسان الجنى "الخيتعور، أحد بنى الشصبان" والَّذِى كُنْيَتُهُ "أبو هدرش" والَّذِى نؤكــد هنــا أن العقّاد استوحى منه قصيدته الشهيرة "ترجمة شيطان" والَّذِى يقول لابْــن الْقَــارِحِ عندما سأله: "يا أبا هدرش، ما لى أراك أشيب وأهل الجنّة شباب؟":

"إِن الإِنس أُكرمُوا بذَلِكَ وأُحرمناهُ، لأنا أُعطينا الحُولة (أى القــدرة علــى التغير والتحوُّل والتقمُّص) فِى الدار الماضية، فكان أحدنا إِن شاء صار حية رقشاء، وإِن شاء صار عُصفورًا، وإِن شاء صار حمامة (أى أنهم فِى جميع الأجناس والأنواع والأشكال)... فمُنعنا التصوُّر فِى الدار الآخرة، وتُركنا علــى خلقنــا لاَ نــتغيرُ، وعُوض بنو آدم كونهم فيما حسُن من الصور. وكان قائلُ الإِنس يقُولُ فِى الــدار الذاهبة: أُعطينا الحيلة وأُعطى الجن الحُولة. ولقد لقيت من بنى آدم شرًّا، ولقُوا منى كذَلِكَ. دخلت مرة دار أُناس أُريد أن أصرع فتاة لهم، فتصورتُ فِى صورة عضل

-أى جُرَذ- فدعوا لى **الضَّيَاوِن** (جمع ضَيْوَن، وهو السّنّور الذكر)... فلما أرهقتنى **تحولت صلا** أرقم، ودخلتُ فِى قطيل (المقطوع من أصل جذع) هناك. فلما علموا ذَلِكَ كشفوه عنِّى. فلما خفتُ القتل **صرتُ ريحًا** هفافة فلحقتُ بالروافد، ونقضُوا تلك الخُشُب والأجذال (الباقى من الأشجار بعد ذهاب فروعها) فلم يروا شـيئًا. فجعلوا يتفكنون (يتعجبون ويتفكرون) ويقولون: ليس ها هنا مكـان يُمكـنُ أن **يستتر** فِيهِ. فبينما هُم يتذاكرون ذَلِكَ، عمدتُ لكعابهم فِى الكله (الناموسـية)... فلما رأتنى أصابها الصرعُ، واجتمع **أهلُها** من كُل أوب، وجمعوا لَهَا **الرقاة**، وجاءوا **بالأطبّة** وبذلوا المُنفّسات، فما ترك رافدٌ رُقيةً إلاّ عرضها علىّ **وأنـا لاَ أُجيـبُ**، وغبَّرَت **الأُساةُ** تسقيها الأَشْفيَةَ وأنا سدك بِهَا **لاَ أزولُ**، فلما أصابها الحِمَامُ طلبت لى **سواها** صاحبة، ثم كذَلِكَ حَتّى رزق الله الإِنابة وأثاب الجزيل، فلا أفتأ لَهُ مـن الحامدين".

أما كيف رزقه الله الإِنابة والتوبة بعد هَذَا كله فهو ما لا يقوله أَبُو الْعَـلاَء، وإِن كان يقول فِى مكان آخر من رسالته بأن الآخرة كالأولى كل شـىء فيهـا بأرزاق!

مَا علينا، فالمهمُّ أنه يُثْبِتُ هنا قدرة "الجنّ" على التحوُّل والانقلاب والتنكُّـر والتستُّر والخبث والمكر، ثم يعود فيذكر أشعارًا لنفس الجنّى -أبى هدرش- فيثبـت بِهَا أشياء أُخْرَى كثيرة وهامَّة، ولن أورد تلك الأشعار بنَصِّها هنا لضيق النطاق، ثم لأن القارئ الذكى يمكنه أن يرجع إِليها كاملة فِى رسالة الْغُفْرَان، والمهم فيهـا أن الجنى مرّ بقرطبة وبالصين ويركب ذكر النعام تارة وثورًا وحشيًّا تـارة أُخْـرَى، ويحضر مجالس الشرب والطرب لينشر فيها ومن خلالها الفساد الّـذى يـسّر لَـهُ

إبليس، ويصرف بالختل الشهود العدول عن الأمانة إِلى أن يخونوا ويشهدوا الزور، ويصرع من شاء وما شاء من النساء والأمهات، وأنه قديم قدم الأزل، فقد مر حَتَّى بنوح الَّذِى ذاده عن سفينته ضربًا وطردًا حَتَّى كُسرت ساقه، وأنه طار ونجا فِـــى زمن الطوفان، وأنه مرّ بموسى وهو يرعى غنم شعيب، وأنه حدّث موسى ووسوس لَهُ، وأنه أضلّ رأْى أبي ساسان (جدّ دولة الطبقة الرابعة من ملوك الفرس المعروفـــة بالساسانية)، وأنه سار مستخفيًا فِى جيش سابور (وهو ابن أردشير حفيد ساسان بن بابك ثانى ملوك الدولة الساسانية الفارسية)، وأنه قلّد السلطة لتابعه بهرام جور ابن يزدجرد ملك الفرس وبانى مدينة جور، ووضع التاج على رأسه! وأنه مرة صِلّ (والصلّ أو الثعبان أو الأفعى هُوَ رمز الْمَاسُونِيَّة منذ أقدم العصور)، ومرة أُخْـــرَى عصفور -كما قال قبل ذَلِكَ- إِلى أن يقول:

تلـــوحُ لِـــى الإِنـــسُ عُـــورًا أو ذَوِى حَـــوَلٍ
ولم تكُــــنْ قَـــطُّ، لاَ حُـــولاً ولا عُـــورا

إِلى أن يذكر توبته الكاذبة مرة ثانية، وإِن كان لم يذكر كيف تاب وكيف رُزق الخلد! فالأرزاق على الله كما يقولون، والله لن يغفر لهم، ولو استغفرت أنت لهم سبعين أو سبعين ألف أو مليون مرة! على أنه يتحتم علينا أن نذكر قـــول أبي هدرش هَذَا لابْن الْقَارِحِ: "إِنا أهلُ ذكاء وفِطَن، ولاَ بُدّ لأحدنا أن يكون عارفًـــا بجميع الألسُن الإِنسيَّة، ولنا بعد ذَلِكَ لسان لاَ يعرفهُ الأنيسُ، أى لسان خـــاصٌّ لاَ يعرفه سوانا، نتحاور بِهِ فى ما بيننا، أما المعرفة بجميع الألسنة فممَّا يلزمهم لإِمكان التغيُّر والتحوُّل والتصوُّر بحيث شملوا البَشَرِيَّة والعالَم فِى كل زمان!

ثم يدور بين الجنى وابْن الْقَارِحِ حديث طويل عن قـصَّة الـرجم -رجـم النجوم- وهل كان الرجم فِى الجاهلية أم كان فِى الإسلام كما يقـول بعـضهم. وكيف أنه زاد فِي أوان المبعث بالذات "... وإن التخرُّص لَكثير فِى الإنس والجنِّ، وإن الصِّدق قليل...". والأهم من ذَلِكَ كله أن أبا هدرش هَذَا هُوَ الَّذِى أنذر الجن بالكتاب المنزّل حين كان فِي رفقة تريد اليمن فمرُّوا بيثرب فسمعوا قرآنا عجبًـا يهدى إِلى الرشد، ويزعم أهم آمنوا بِهِ، وعاد إِلى قومه فذكر لهم ذَلِكَ "فتـسرعت منهم طوائفُ إِلى الإيمان، وحثّهُم على مَا فعلوه أهم رُجموا عن اسـتراق الـسمع بكواكب مُحرقات"... يريد أَبُو الْعَلاَءِ أن يقول إِهم تسللوا إِلى الإسـلام كمـا تسللوا إِلى سائر العقائد من قبل ومن بعد!!

ثم يعود أبو هدرش إِلى الشعر فيقدِّم فِيهِ ثبتًا طويلاً بأفعاله الجهنميـة قبـل المبعث وإِبانه وبعده، فكم عروس -على حدِّ اعترافه-:

غـــرتُ عليهـــا، فتخلجتُهـــا
بواشـــكِ الـــصرعةِ قبـــل المـــسيسْ
وأســـلُكُ الغـــادة محجوبـــةً
فِـــى الخـــدر، أو بـــين جـــوارٍ تَمِـــيسْ

إِلى أن يقول:

تحملُنـــا فِـــى الجُـــنح خيـــل لَهَـــا
أجنحـــة، ليـــست كخيـــل الأنـــيس

وبعد ذَلِكَ مباشرةً يتخفَّى أَبُو الْعَلاَءِ فِي ثوب الجـنى أبي هـدرش نفـسه ليخاطب كتيبته الْخَرْسَاء ناصحًا إِياها بأن تلزم تكتيك الجانِّ هِـىَ أَيْـضًا لكـى تهزمهم بسلاحهم وبطرائقهم وبأسلوبهم:

لاَ نُـسك فِـى أيامنـا عنـدنا
بـل نُكِّـس الـدينُ فمـا إِن نكـيس
فالأحـدُ الأعظـمُ والـسبتُ كالـ
إثـنين، والجُمعـةُ مثـل الخمـيس
لاَ مُجُـسٌ نحـنُ ولا هُـوّد
ولا نـصارى يبتغـون الكنـيس
نُمـزِّقُ التـوراة مـن هُوبِهـا
ونحطـمُ الـصلبان حطـم اليبـيس
نُحـاربُ الله جُنـودًا لإبـ
ـليس أخـى الـرأى الغـبين النحـيس
نُـسلمُ الحكـم إِليـه إِذا
قـاس، فنرضـى بالـضلال الْمَقِـيس

فيظن القارئ المتعجل أن الَّذِى مَا زال يتكلم هُوَ أبو هدرش مع أنـه أَبُـو الْعَلاَءِ يتكلم إِلى كتيبته الْخَرْسَاء ثم يتكلم بلسانها. إِنه بمنهج التعاكس يُلزِمُهم هنـا بِمَا لاَ يَلْزَمُ من الكفر والزندقة والإلحاد والخبث والمكر، إلخ، لكى يُلْزِمَهُمْ بِمَا يلزم وهو الإيمان والتوحيد. فلا يفلّ المكرَ غير المكرِ بالمكرِ. إِن على أعضاء الْكَتِيبَـة أن يُخفُوا إِيمانهم وأن يعلنوا الضلال بكل الصور الممكنة كنوع من ذرِّ الرمـاد فِـى

العيون المتربصة بهم فِى كل زمان ومكان أو كنوع من سُحُبِ الدخان الَّتِى تعمى الأعداء:

أمـــا الهـــدى فوجدتـــه مَـــا بيننـــا

ســـرًّا ولكـــن الـــضلال جهـــار

الظاهر شيء، والباطن شيء آخر! أَلِهَذَا يقولـون: إن المعـنى فِـى بطـن الشاعر؟! إِذن فالاسم الحقيقى -بالمعكوس- لِلُزوميات أَبِى الْعَلاَءِ هُوَ "لـزوم مَـا يلزم" لاَ "لزوم ما لا يلزم"، فلقد لزم مَا لاَ يلزم ليفرض على كتيبته أن تلـزم مَـا يلزم، بأن تلزم المعكوس لتعيد عكسه، والمقلوب لتعيد قلبه، والمُبدَل لتعيد إِبداله!!

أستاذ الديالكتيك هُوَ أَبُو الْعَلاَءِ قبل ديالكتيك هيجل المثالىّ وقبل ديالكتيك ماركس المادِّىِّ. ولكن هَذَا يحتاج وحده إِلى دراسة مطوَّلة ليس هَذَا مكانها. فالمهمّ الآن أن أَبَا الْعَلاَءِ يعود فيترك لسان الحال إِلى أبِى هدرش ويمزج تارةً ويفرق أُخْرَى بين لسانه هُوَ ولسان الجنِّ الَّذِى يواصل تعداد "مآثره" الشيطانية فيذكر أنه نـادَمَ قابيلَ وشيثًا وهابيلَ، كما عاشر لقمانَ ورهطه، وأنه "جاهد" فِى بدر و"حـامى" فِى أحد، وأنه راع فِى غزوة الخندق "الرئيس" أى أبا سفيان! وأنـه مـشى وراء جبريل وميكائيل وغيرهما من الملائكة الذين حاربوا مع المسلمين فِى تلك المعارك، وأنه طار فِى اليرموك فوق حصان حين اشتدّ الضرب والطعن كما سبق أن طـار فِى زمن الطوفان! وأنه حضر واقعة الجمل كما حضر واقعة صـفّين بـين علِـىٍّ ومعاوية وأنه سار قُدَّام علِىٍّ فِى واقعة النهر، وبعد ذَلِكَ كله صادفته التوبة!

للدليل بقية...

* * *

ملاحظات:

(١) انظروا إلى "تلك اليهود" الَّتِى تعود على "الـداء القـديم"... مع ملاحظة... (ن.س). (للأسف، تكملة الملاحظة ليست واضحة فِى النسخة المتاحة).

(٢) ملحوظة كتبها نَجِيب سُرُور ليست واضحة تَمَامًا فِى النسخة المتاحة.

(٣) الكلمات الَّتِى بالبنط العريض والتى يتضمنها الفصل الماثل من وضع نَجِيب سُرُور نفسه.

الفصل الخامس

لمن كُتِبَت رسالةُ الغُفْرَان؟

"أنا أقول: إن أى مقاتل فكرى فِى الخطوط الأمامية لاَ يمكن أن يحصل على أغلبية...".

هنريك إِبسن

"لقد قمت بحلّ جميع المشكلات فِى عصرنا تقريبًا، ولكنها تُعرض دَائِمًا على بساط البحث كما لو لَمْ يَكُن لى وجود على الإِطلاق!".

برنارد شو

فِى نفسى أشياء كثيرة من رسالة الْغُفْرَان أحسّ بأننا فِى مسيس الحاجة إلى أن نتزود بِهَا فِى رحلتنا الطويلة والشاقّة مع أَبِى الْعَلاَءِ! وقد تخطيتها عمدًا لأنه لاَ حصر لَهَا -من ناحية- وليقينى من أن القَارِئ الذكىّ قادر على التقاطها بنفسه

وإعمال الفكر فيها -من ناحية أُخْرَى- وإن كنت سأُضطرّ أحياناً في أمكنة ومناسبات قادمة للرجوع إلى بعضها!

والآن ننتقل إلى الجزء الثانى من الرسالة حيث يتصدَّى أَبُو الْعَلاَءِ للردّ مباشرة على رسالة ابْن الْقَارِحِ، بعد أن ردّ عليها بطريق غير مباشر فِى الجزء الأول الّذِى يغطّى الرحلة المتخيَّلة لابْن الْقَارِحِ بين الفردوس والجحيم! ويبدأ أَبُو الْعَلاَءِ ردَّه فِى هَذَا الجزء كما يلى: "فهمتُ قوله: جعلنى اللهُ فداءه"!

وكأن ابْن الْقَارِحِ كان يتوقع أن لا "يفهم" أَبُو الْعَلاَءِ قوله، أو كأن القَارِئ كان يتوقع هَذَا!! فمَاذَا فِى عبارة ابْن الْقَارِحِ البسيطة السهلة "جعلنى الله فداءه" ممَّا يمكن أن يصعب على "فهم" أى إنْسَان -فضلاً عن أَبِى الْعَلاَءِ- حَتَّى يحتاج فهمه إلى هَذَا التأكيد الإخبارى من جانب أَبِى الْعَلاَءِ؟! لاَ شىء من هَذَا القبيل على الإطلاق! "جعلنى الله فداءه" تعنى جعلنى الله فداءه ليس غير، وكان الله يحب المحسنين! هَذَا فِى الظاهر! أمّا فِى الباطن فإن لـ"جعلنى الله فداءه" عند ابْن الْقَارِحِ وفى ما بينه وبين أَبِى الْعَلاَءِ أشياء أُخْرَى متَّفَقًا عليها شفريًّا أو اشتراطيًّا أو اصطلاحيًّا، فهمها أَبُو الْعَلاَءِ، وكان من الضرورى أن يُطَمْئِنَ ابْن الْقَارِحِ على أنه فهمها ويؤكّد لَهُ ذَلِكَ. للعبارة إذن -فى ما بين الرجلين- معانٍ غير معناها اللفظىّ الحرفِىّ اللغوىّ الظاهرىّ السطحىّ. إنها عبارة "سِرِّيَّة" بلغة أو بمعجم تَمَّ الاتِّفاق عليه قبلاً بين الرجلين، إنه مُعْجَم العلماء لاَ مُعْجَم الْعَامَّة، أو مُعْجَم خاصّ بالمتراسلين لاَ عامّ!

من هنا تصبح كلمة "فهمت" ضرورية جدًّا فِى الردّ، لاَ غريبة كما بدت للوهلة الأولى! إذن فرسالة ابْن الْقَارِحِ كلها شفرية من باب أَوْلَى، ولِهَذَا جاءت

رسالة الْغُفْرَان كلها شفريَّة، وبِجُزْأَيْها المباشر وغير المباشر. انظروا إِلى ديالكتيك أَبِى الْعَلاَءِ وهو يسوق المباشر فِى غير المباشر وغير المباشر فِى المباشر، ويظلّ مع ذَلِكَ شفريًّا وغيرَ مباشرٍ، ويظلُّ فِى نفس الوقت صريحًا ومباشرًا.

هل يمكن لأحد أن يصطاد هَذَا البهلوان؟!

وهل كان يمكن أن ينجو من السيوف الْمُشْرَعة، لو لَمْ يَكُن ماهرًا إِلى هَذَا الحدِّ فِى البهلوانيَّة، ولو لَمْ يَكُن يملك عقليَّة ديالكتيكيَّة فذَّة ونادرة لم يَرْقَ إِليها أحد من سابقيه أو لاحقيه على إِطلاقٍ، من المثاليين والمادِّيِّينَ على السواء؟!

كلمة "فهمت" هنا فِى مطلع الجزء الثانى من رسالة الْغُفْرَان، تشبه إِلى حدٍّ كبير كلمة "وصلَت" فِى مطلع الجزء الأول من الرسالة، فِى قوله لابْن الْقَارِحِ: "وصلَت الرسالة"! فابْن الْقَارِحِ فِى حاجة فعلاً إِلى أن يطمئنّ على "وصول" رسالته إِلى أَبِى الْعَلاَءِ. فقد كان يخشى عدم وصولها، لأنه يتوقع أسوأ الاحتمالات لرسالة منه بالذَّات إِلى أَبِى الْعَلاَءِ بالذَّات فِى تلك الظروف بالذَّات! خاصَّة وأن هناك سابقة خطيرة يذكرها ابْن الْقَارِحِ فِى رسالته فيقول: "كان أَبُو الْفَرَجِ الزهرجى كاتب حضرة نصر الدولة (أحمد بن مروان، أبو نصر، صاحب ميافارقين وديار بكر) -أدام الله حراسته- كتب رسالة إِلىّ أعطانيها، ورسالة إِليه (يقصد إِلى أَبِى الْعَلاَءِ) -أدام الله تأييده- استودَعنيها، وسألنى إِيصالها إِلى جليل حضرته... فسرق عديلى رحلاً لِى، الرسالة فِيهِ، فكتبتُ هَذِهِ الرسالة (يقصد رسالته) أشكو أُمورى"!!

ويعلّق أَبُو الْعَلاَءِ فِى رسالته على هَذِهِ الحادثة أو السابقة الَّتِى لاَ بُدَّ أن تكون أثارت مخاوفه وقلقه على أسراره وأسرار حزبه -الْكَتِيبَة الْخَرْسَاء- وأورثته الحزن والرعب أو لفتت نظره إِلى تربُّص "اللصوص" -الأعداء- بِهِ، فهو يقول: "...

وددتُ أن "الرسالة" وصلت إلىّ، ولكن مَا عدل ذَلكَ العديل... هلاّ اقتنع بنفقة أو ثوب، وترك الصحُف عن نوب (يعنى هلاّ ترك الصحف وسرق المتاع)؟ فَأَرِبَ من يديه، ولا اهْتَدَى فِى الليلة بفرقديه (يدعو على اللصّ أملاً فِى أن يُضِلّه الله فلا يهتدى إِلى مضمون الصحف). لو أنه أحدُ لصوص العرب الذين رُويت لهم الأمثالُ السائرةُ وتحدثت بهم المُنجدةُ والغائرة، لما اغتفرتُ مَا صنع بِمَا نظم، لأنه أفرط وأعظم"!

إِلى هَذَا الحد كان حزن أَبِى الْعَلاَءِ لضياع رسالة أبى الفرج الزهرجى إِليه – وَلاَ بُدّ أنها أَيْضًا كانت شفريَّة– من ثم كان من واجبه فِى مطلع رسالة الْغُفْرَان أن يطمْئِن ابْن الْقَارِحِ على وصول رسالته، من ثم تصبح كلمة "وصلَت" مثل كلمة "فهمْت" ضروريَّةً للغاية لاَ زائدة ولا غريبة، ولا من باب تحصيل الحاصل، إِلى دلالتها الاصطلاحية الاتفاقية الشَّفْرِيَّة، وهى تعبِّر فِى نفس الوقت عن الأخطار المحدقة بأَبِى الْعَلاَءِ وبابْن الْقَارِحِ وبأبى الفرج الزهرجى وبأعضاء كتيبة أَبِى الْعَلاَءِ الْخَرْسَاء فِى مصر الفاطمية –دنانير مصر– كما يسمِّيهم أَبُو الْعَلاَءِ، وهم جميعًا فِى كل مكان من العالَم الْعَرَبِىّ والعالَم المعروف حينذاك الَّذِى توزعت فِيهِ الْكَتِيبَة أو بُذرت فِيهِ بذورُها!

ولكن لِمَاذَا استعمل أَبُو الْعَلاَءِ كلمة "الصحف" فِى تعليقه على حادثة السرقة بدلاً من كلمة "رسالة" الواردة على لسان ابْن الْقَارِحِ فِى النَّصّ المذكور عاليه؟! ألا يوحى هَذَا بأن السرقة وقعت على نَصٍّ أكبر بكثير من أن يكون مجرَّد رسالة مختصَرة فِى حجم رسالة ابْن الْقَارِحِ الَّتِى "وصلت"؟! ثم ألا يمكننا أن نتوقع من رجل كأبى الفرج الزهرجى صاحب خزانة الكتب الَّتِى عرضها على ابْن الْقَارِحِ فقال الأخير عَنْهَا إنها جميعا "يَهُودِيَّة"... والَّذِى يقول عَنْهُ أَبُو الْعَلاَءِ: "وأمَّا

أَبُو الْفَرَجِ الزهرجى فمعرفته بالشيخ "أى ابْن الْقَارِحِ" تُقْسِمُ أنه للأدب حليف، وللطبع الخيِّر أليف".

أقول، هل يمكن أن يكون -هَذَا الرجل- قَد كتب مجرَّد رسالة لأَبِى الْعَلاَءِ، خصوصًا وأنها كانت الرسالة الأولى؟! أم نستنتج من تسمية أَبِى الْعَلاَءِ لَهَا بـ"الصحف" بدلاً من "الرسالة" أنها كانت عملاً ضخمًا أو كبيرًا ووثائقيًّا، وأنها قَد تفوق فِى الأَهَمِّيَّة مرارًا رسالة ابْن الْقَارِحِ الَّتِى احتفظ بِهَا التَّارِيخ على غير عادته إِزاء تراثنا الْعَرَبِىّ الحسير؟! الدليل على أَهَمِّيَّة رسالة الزهرجى الضائعة يكمن أَيْضًا فِى كون أَبِى الْعَلاَءِ ظلّ يأمل -وربَّمَا طويلاً- فِى أن لا يهتدى ذَلِكَ العذيل اللِّصُّ إِلى مضمونها الحقيقى! ممَّا يؤكِّد شفرية الصحف أو الرسالة.

أمَّا ابْن الْقَارِحِ فواضحٌ أن رسالته إِلى أَبِى الْعَلاَءِ لَمْ تَكُن الرسالة الأولى وأن رسائل أُخْرَى كثيرة -رُبَّمَا- قَد سبقتها وربَّمَا لحقتها أَيْضًا وإِن لم "تصل" إِلينا! فما كان لابْن الْقَارِحِ أن يكتب رسالته هَذِهِ الشَّفْرِيَّة لأَبِى الْعَلاَءِ بغتةً أو مصادفةً قبل أن يكون الاتفاق قَد تَمّ بينهما سلفًا على لغة التخاطب والتراسُل الشَّفْرِيَّة، هَذَا الاتفاق الَّذِى يمكِّن ابْن الْقَارِحِ من أن يكتب وأَبَا الْعَلاَءِ من أن "يفهم" ثم يردّ، وهكذا! هَذَا يقطع بأن ابْن الْقَارِحِ كان أحد أعضاء أو جنود الْكَتِيبَة الْخَرْسَاء فِى مصر الفاطمية، وربَّمَا كان زعيمها فِى مصر ولَمْ يَكُن بالشخصيَّة الهامشيَّة البسيطة كما ذهب إِلى ذَلِكَ طه حسين وبنت الشاطئ ولويس عوض وغيرهم! فليس من المتصوَّر ولا من المعقول أن يكتب أَبُو الْعَلاَءِ رسالته هَذِهِ الخطيرة -الْغُفْرَان- ردًّا على رسالة ابْن الْقَارِحِ الَّتِى لاَ تقلُّ عَنْهَا خطورة لو كان الأخير رجلاً من هَذَا الطراز الهامشى!

فهو قَد استطاع أن يقنع أَبَا الْفَرَجِ الزهرجى بأن خزانته كلّها يَهُودِيَّة، حَتَّى لقد كتب إِليه رسالة يقرِّظه فيها بعد أن تَحَقَّقَ من ذَلِكَ! وهَذَا يدلّل علـى سـعة اطِّلاَعه! ثم هُوَ قَد تَحَدَّى الزهرجى لأنه كما يقول عن نفسه: "لاَ يهرف (يهذى) بِمَا لاَ يعرف"... ثم هُوَ كما يقول لأَبِى الْعَلاَءِ فِى ترجمته الذاتية: "كنـتُ أدرس على أَبِى عبد الله ابن خَالَوَيهِ رحمه الله، وأختلـفُ إِلى أبى الحـسن المغـربىِّ... ثم سافرتُ إِلى بغداد ونزلت على أبى علىٍّ الفارسىٍّ، وكنتُ أختلفُ إِلى عُلماء بغداد: إِلى أبى سعيد السيرافِى، وعلِىٍّ بن عيسى الرمانى، وأبى عبيدة المرزبانى، وأبى حفص الكتانى... وكتبتُ حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم... ثم سافرتُ مِنْهَا (من بغداد) إِلى مصر، ولقيتُ أبا الحسن المغربى فألزمنى أن لزمته لزوم الظـل"... ممَّـا يشير إِلى أن أبا الحسن المغربى هُوَ الأستاذ الأكبر لابْن الْقَارِحِ -قبل أَبِى الْعَـلاَءِ- وإِلى أنه هُوَ الَّذِى عرَّفه بأعمال أَبِى الْعَلاَءِ ورُبَّمَا جنَّده فِى الْكَتِيبَة الْخَرْسَـاء فِـى قوله: "ألزمنى أن لزمته لزوم" مشيرا إِلى "لزوم مَا لاَ يلزم" بالتأكيد!

وهو هنا يُنْبِئ أَبَا الْعَلاَءِ بأنه درس وفهم على يَـدَى أبى الحـسن المغـربى "اللزوميات"... كما يشير إِلى أنه انضوى منذ ذَلِكَ الحين تحـت لـواء الْكَتِيبَـة الْخَرْسَاء تَمَامًا كأبِى الحسن وذَلِكَ بقوله: "وكنتُ منه مكان المثل"... وهَذَا يـشير أَيْضًا إِلى أن ابْن الْقَارِحِ لاَ يقلُّ عن أبى الحسن ذكـاءً ولا عقـلاً ولا علمًـا ولا اطِّلاعًا، ثم يذكر ابْن الْقَارِحِ أن المغربى قال لَهُ سرًّا: "مَا نرضى بالخمول الَّذِى نَحْنُ فيه"... فقال لَهُ: "وأى خمول هنا؟! تأخذون من مولانا (يقصد الحاكم بأمر الله) -خلَّد اللهُ مُلكَه- فِى كل سنة ستة آلاف دينار (رُبَّمَا كان هَذَا عدد الـدنانير فِـى مصر، أى أعضاء الْكَتِيبَة الْخَرْسَاء، ورُبَّمَا أراد أن يخبر أَبَا الْعَلاَءِ بِهَذَا من خـلال حكايته عن أبى الحسن المغربى)... وأبوك من شيوخ الدولة وهو معظَّم مكرم"!

فقال المغربى: "أريد أن تُصار إلى أبوابنا الكتائبُ والمواكبُ والمقانبُ (جمع مقنب وهو جماعة من الخيل تجتمع للغارة)... ولا أرضى بأن يُجرى علينا كالولدان والنسوان"!... ثم هُوَ -ابْن الْقَارِحِ- رجل اشتغل فِى خدمة القائد أبى عبد الله الحسين بن جوهر فأصبح قريبًا من الحاكم بأمر الله (أَبُو عَلِىٌّ منصور الفاطمى صاحب مصر والشام والحجاز والمغرب)... أى من السلطة، فلما قتل الحاكم القائد بن جوهر قام ابْن الْقَارِحِ بتهريب أولاده من مصر: "فجاءنى أولاده سرًّا... فقلتُ لهم: خيرٌ مَا لِى ولكم الهربُ، ولأبيكم ببغداد ودائعُ، خمسمائة ألف دينار (رُبَّمَا كان هَذَا هُوَ عدد جنود الْكَتِيبَة الْخَرْسَاء يومذاك فِى العراق!)... فاهربوا وأهربُ. ففعلوا وفعلتُ. وبلغنى قتلهم بدمشق وأنا بطرابلس"!

فهل كان القائد ابن جوهر المقتول من جنود الْكَتِيبَة الْخَرْسَاء واكتشف الحاكم ذَلِكَ فقتله وطارد حَتَّى أولاده فقتلهم فِى دمشق؟ هَذَا مؤكَّد، ويتضح من رعاية ابْن الْقَارِحِ لأولاد القتيل وهروبه معهم من مصر!

ثم هُوَ -ابْن الْقَارِحِ- الَّذِى قام بتربية أبناء أستاذه أبى الحسن المغربى، لم يشذّ منهم إِلاّ أبو القاسم المجنون! ثم هُوَ كما يقول عن نفسه: "... كنتُ أكتبُ خمسين ورقة فِى اليوم، وأدرس مائتين... ومعى بقيَّة نزرة يسيرة من جملة كثيرة. لو وجدتُ ثقة أعطيتُهُ إِيَّاها... وأنا أجدُ من أدفعُها إِليه وبقى أن يردّها إِلَيّ!". أى أنه رجل يعرف مَا يمكن أن يكون حَتَّى أَبُو الْعَلاَءِ فِى حاجة إِليه، للاطّلاع، وأنه أرسل إِلَيْهُ قبل ذَلِكَ أشياء يسأله ردَّها إليه، وأنه مَا زالت لديه بقية من كثير يمكنها أن تفيده وأنه يودّ لو يعرف ردّ أَبِى الْعَلاَءِ فى ما ورد بِهَا. ثم رسالة ابْن الْقَارِحِ ذاتها والثّبت الطويل بالكتب والأخبار والقضايا والرواة والفقهاء والعلماء، إلخ.

كل هَذِهِ المعارف وكل هَذَا الاطِّلاع إِلى جانب ذكاء خارق وعلم محيط مستبصر، إِلى جانب علاقات سياسيَّة شديدة وواسعة لشدَّة قربه من رجالات السلطة الفاطميَّة، إِلى جانب قدرته -الَّتِى لم يعُد هناك شكٌ فيها- على فهم أعمال أَبِى الْعَلاَءِ عامَّة ولزومياته خاصَّة، إِلى جانب اطِّلاعه على رسائل لأَبِى الْعَلاَءِ لم تصل إِلينا فِى قوله: "... ولقد سمعتُ من رسائله عقائل لفظ إِن نعتُّها فقد عِبْتُها"!

كل هَذَا ويظلُّ ابْن الْقَارِحِ هَذَا فِى نظر الباحثين والدارسين والشُّرَّاح رجلاً هامشيًّا لاَ يُعْتَدُّ به ولا يُحسب لَهُ حساب، كما يظلُّ من غير المفهوم أن يكتب أَبُو الْعَلاَءِ رسالة الْغُفْرَان إليه أو حَتَّى أن يهتمَّ بالردِّ عليه!

هَذَا أمر يدلّ على انعدام البصر والبصيرة معًا!!

بقيت فِى النفس أشياء أُخْرَى!

فقد كتبت فِى غير هَذَا المكان أقول إِن ابْن الْقَارِحِ اسم مستعار أو اسم حَرَكِيٌّ تتخفّى وراءه شخصيَّة كبيرة وهامَّة جدًّا، وأنه لاَ بُدَّ أن يكون هُوَ نفسه دَاعِى الدُّعَاةِ الفاطمى "أبو نصر بن أبي عمران" الَّذِى كتب إِلى أَبِى الْعَلاَءِ بادئ ذى بدء يتحداه ويستفزُّه ويستدرجه إِلى البوح بسرِّه ومذهبه، ثم استمرَّت بينهما الرسائل، حَتَّى لقد ظفر مِنْهَا "ياقوت" بـ"مجلد كامل" ثم "انقطع الخطاب بينهما على المساكتة"!

ألا يمكن أن تكون هِىَ نفس "الرسائل" الَّتِى ذكرها ابْن الْقَارِحِ آنفًا، والتى قال إِنه إِن نعتها فقد عابها؟! ثم لِمَاذَا انقطع الخطاب بين دَاعِى الدُّعَاةِ وأَبِى الْعَلاَءِ على المساكتة بتعبير ياقوت؟!

ألا يعنى هَذَا أن دَاعِى الدُّعَاةِ انسلخ من جلد الفاطميَّة وانضوى تحت لواء الْكَتِيبَة الْخَرْسَاء؟ ألا يعنى أن "مجلد" الرسائل بينهما كان يتضمن مَا من شأنه أن

يُفحِم دَاعِي الدُّعَاةِ ويقنعه ويُلزِمه -هُوَ الآخر- بأن يُلزِم أَبَا الْعَلاَءِ كمــا يُلزِمــه بالصمت والخرس نزولاً على تعاليم أَبِي الْعَلاَءِ ولذَلِكَ اتفقا على "المساكتة" فِــي الظاهر وعلى التراسل الشفرى فِي الباطن، ومن هنا رسالة ابْن الْقَارِحِ؟!

إن دَاعِي الدُّعَاةِ فِي ختام رسائله، وقبل أن يلزم "السكوت"... يقول عــن أَبِي الْعَلاَءِ: "... ولأنني إذا تتبعت فضله بصناعته فِي الأدب والشعر وجدتُ فِــي أرضه مُراغمًا كثيرًا وَسَعَة، ومن أين لى أن أظهر على مكنون جواهر علوم دينــه كظهورى على مصنَّفات أدبه وشعره... وقبلُ وبعدُ فأنا أعتذر عن سرٍّ لَــهُ -أدام الله حراسته- أذعته، وزمان منه بالْقِرَاءَة والإجابة شغلته، لأنني من حيثُ مَا نفعتُــهُ ضررته، والله يعلمُ أَنِّي مَا قصدتُ بِهِ غير الاستفادة من علمه، والاغتراف من بحره، والسلام".

هل عرف دَاعِي الدُّعَاةِ سرَّ أَبِي الْعَلاَءِ أم لاَ؟! إن النَّصّ السالف يوحى بأنه عرف، بقدر مَا يوحى بالعكس! وقد يمكننا أن نأخذه على محمل التغطية والتخفّي!

هل يمكن أن تكون "المساكتة" بعد ذَلِكَ حقيقية وفعليَّة؟ لاَ يمكن، لاَ يمكــن بحال! ألا يمكن أن تكون رسائل دَاعِي الدُّعَاةِ، بالصورة الَّتِي وصلتنا عن يــاقوت شفريَّة هِيَ الأُخْرَى أسوة برسالة ابْن الْقَارِحِ؟! يمكن، يمكن جدًّا.

لاَ بُدَّ أن أَبَا الْعَلاَءِ قَد أجاب دَاعِي الدُّعَاةِ أَيْضًا على هَذِهِ الرسالة الختاميَّــة، وأطْلَعَ ياقوت على الإجابة وإن آثر -لسبب مَا- أن لا يُطلعنــا عليهــا. بــل إن حجْبها يصبح من أوجب الواجبات على ياقوت بعد أن تجــاوز الأمــر التراسُــل الفضوليّ من جانب دَاعِي الدُّعَاةِ إلى الانخراط السِّرِّيِّ تحت لواء الْكَتِيبَة الْخَرْسَــاء، ممَّا يعنى أن "الاتفاق على المساكتة" مجرَّد مزعم ياقوتيٍّ صرف.

إننى أشمُّ فِى رسائل دَاعِى الدُّعَاةِ مَا يكاد يكون صورةً طبق الأصل مِمَّا ورد فِى رسالة ابْن الْقَارِحِ، نفس لسان الحال تقريبًا، مع ملاحظة أن رسالة ابْن الْقَارِحِ كُتبت بعد المساكتة، بينما كُتبت رسائل دَاعِى الدُّعَاةِ قبل المساكتة!

ولكن لِمَاذَا لم يسجِّل ياقوت جميع الرسائل أو "مجلد" الرسائل الَّذى ظفر بِهِ عمَّا دار بين داعى الدُّعاه وأَبِى الْعَلاَءِ؟! إنه يقول بأنه حرص على أن يقف "على صورة مَا دار بينهما على وجهه"! أهو مجرَّد الكسل كما يذكر ذَلِكَ بقوله: "ونقْلها على الوجه يطول فلخّصت مِنْهَا الغرض دون تفاصُح الْمَعَرِّىّ وتشدُّقه"... أم هُوَ الضيق بتفاصُح وتشدُّق الْمَعَرِّىّ... أم مَاذَا؟!

واضح جدًّا أن ياقوت يدرك أَهَمِّيَّة وخطورة تلك الرسائل بدليل "اشتهائه" أن يظفر بِهَا ويقف عليها وعلى وجهها التامِّ.

معنى كلام ياقوت أنه نقلها على غير وجهها دون مَا اسماه تفاصحًا وتشدُّقًا من جانب الْمَعَرِّىّ.

واضح أن هجومه على الْمَعَرِّىّ نوع من التحوُّط والتستُّر. يدرك ياقوت إِذن خطورة تسجيل الرسائل على وجهها حَتَّى لاَ يفضح نفسه ويفضح أَبَا الْعَلاَءِ ودَاعِى الدُّعَاةِ ويكشف سرَّ اتفاقهما -الظاهرىَّ- على المساكتة! إِنه الحرص الشديد على النفس وعلى أَبِى الْعَلاَءِ وعلى دَاعِى الدُّعَاةِ، لاَ الكسل ولا الضيق بتفاصُح أو تشدُّق الْمَعَرِّىّ ولا عدم الإدراك لخطورة الرسائل.

هَذَا يؤكد أَيْضًا أن ياقوتًا كان من جنود الْكَتِيبَة الْخَرْسَاء، وأنه خشى أن يعرِّض أسرارها لأخطار محدقة، فآثر إِخفاء أغلب الرسائل واكتفى بتلخيص صغير أو هزيل -غير شافٍ- وعلى غير الوجه الَّذِى كُتب بِهِ أصلاً مِمَّا ليس من شأنه أن يهدّد بأى خطر!

لم يغب عن ياقوت وصيَّة أبِى الْعَلاَءِ لمريديه:

إذا كان التقــارُض مــن محــال.
فأحسنُ من تَمَادُحِنــا التَّهــاجِى

محرِّضًا إِياهم على هجائه بدلاً من مدحه ما دام فِى هَذَا ضــمان لــسلامته وسلامتهم!

ويكرر ذَلِكَ بقوله:

وحمــولى يــذود عــنِى الرزايــا
نام عنِّــى الأذى فلــم يتنبــهْ لى

كما لَمْ يَكُن غائبًا عَنْهُ وهو يتّهم الْمَعَرِّىّ بالتفاصُح والتَّشدُّق قولُه متبرئًا من التفاصُح والتَّشدُّق:

من يبغ عندى نحوا أو يــرد لغــة
فما يساعف من هَذَا ولا هــذى

وقوله:

مَا النَّحْو والشعر والكــلام ومــا
مرقّشٌ والمــسيَّب بْــنُ عَلَــس

الفصل السادس
الطبيعة الشُّفْرِيَّة لرسالة الْغُفْرَان

مَاذَا عن الجزء الثانى من رسالة الْغُفْرَان؟

وكيف نأخذ هَذَا الجزء هُوَ الآخر؟

أعلى الوجه الوارد بِهِ، أم على الوجه المعكوس؟ أعلى الوجه المباشر أمْ غير المباشر؟ أعلى الوجه الظاهرى أم الباطنى؟! لقد فرغنا -فى ما أرجو- من إِثبات الطبيعة الشُّفْرِيَّة لرسالة الْغُفْرَان كلها وكذَلِكَ رسالة ابْن الْقَارِحِ، كما رأينا ديالكتيك أبِى الْعَلاَءِ يفرّق بين المتناقضات ويجمع بينها ويبادل بعضها ببعض فِى وقت واحد، ورأينا كيف أنه يتحدث عن المباشر بطريقة غير مباشرة وعن غير المباشر بطريقة مباشرة، ويستبدل هَذَا بذاك، وهكذا. ولكن على أى وجه أُخذت رسالة الْغُفْرَان عامَّة والجزء الثانى مِنْهَا خاصَّة -والمفروض أنه الجزء المباشر- فلسوف نكتشف هنا أشياء هامَّة وخطيرة وباعثة على الفضول!

والمهم أنك على أىّ وجه أخذتَ الجزء الثانى من الْغُفْرَان، فإنك ستكون قَد أخذته بالطريقة الَّتِى يراها أَبو الْعَلاَءِ! تلك الطريقة الَّتِى أفشاها على لسان عمرو بن أحمر حين جعل ابْن الْقَارِحِ يسأله عن قوله:

بان الشبابُ وأخلفَ العَمْرُ

وتغيَّرَ الإخوانُ والدهرُ

ويقول لَهُ: إِن الناس اختلفوا فِى تفسير "العَمر" -بفتح العين – فقيل إِنه يريد "البقاء"... وقيل إِنه أراد "الواحد من عُمُور الأسنان، وهو اللحم الَّذِى بينها".

فيقول عمرو متمثلاً:

خُذا وجه هرشى أو قفاها فإنــه
كلاً جانبى هرشى لَهُــنَّ طريــق

أى أن التَّأْويلين صحيحان، الوجه والقفا. وبِهَذَا يعطيك أَبُو الْعَــلاَءِ أحــد المفاتيح الرئيسيَّة اللازمة لفهم كل مَا كتب! فلنأخذ وجه رسالة الْغُفْرَان أو قفاها، فإننا سنكون على الطريق إلى عالَم أبِى الْعَلاَءِ!

إنه أولاً يحذّر ابْن الْقَارِحِ من المنافقين والخونة، حرصًا منــه بــالطبع علــى سلامة الْكَتِيبَة الْخَرْسَاء!

ثم يحضُّه على الاحتراز منهم إلى أبعد الحدود وبخاصَّة النساء، ونساء معينــة بالذات كما سنرى، لاَ النساء عامَّة وعلى إطلاق كما ظنّ القدماء والمحدَثون مــن الشُّرَّاح والنُّقَّاد على السواء. يقول الْمَعَرِّىّ: "لو قالت شيرين الملكة (ملكة الفــرس وزوجة كسرى أبرويز) لكسرى "أبرويز": جعلنى الله فداءك -وهى نفس العبــارة الَّتِى قالها ابْن الْقَارِحِ لأَبِى الْعَلاَءِ فِى مطلع رسالته والتى وقفنا عنــدها بِمَــا فِيــهِ الكفاية- لخالبته فِى ذَلِكَ ونافقته، وإن راقته بالعطل (أى بغير حَلْى، لاستغنائها عن الحَلْى بجمالها) ووافقته"...

إلى هَذَا الحد كان الرجل يكره ويخشى المنافقين والخونة وخــصوصًا مــن جانب النساء، لأن بينهن -كما سنرى- اليهوديات والمهوّدات، وسيكرر الإلحاح على هَذَا فِى كل أعماله، ويقول: "... وَإِنَّمَا أفرقُ من وقوع هَذِهِ الرسالة فِى يــد غُلام مُترعرِع، ليس إلى الفهم بمتسرع، فتستعجمُ عليه اللفظةُ، فيظل معها فِى مثل القيد، وكم خالبت الذئابَ السلقُ (جمع سلقة وهى أنثى الذئب)... وفِى الضمائر

تكن الفلقُ (جمع فلقة وهى الداهية)... يقول القائل: بأبى أنـت، جَـادَ عملُـك وأتقنت! ولو قدر لبت الودَج (عرق الـذبح)... وَإِنَّمَـا جامـل وسـدج (أى كذب)... وكيف يُعتبُ الزمنُ على تجافيه؟ وَإِنَّمَا خُشى بِشَرٍّ وغدرٍ... وما أقـلَّ صدقَ الآلاف!".

ثم يقول بحزن شديد وحسرة مُرَّة إزاء الافتراءات عليه وعلى سبيل التغطيـة فِى نفس الوقت: "إِنى لمكذوب عليه كما كذبَت العربُ على الغُـول... وكمـا تَقَوَّلَت الأمثالُ السائرةُ على الضَّبِّ... وكما تكلمت على لسان الـضبع وهـى خرساءً. يُظَنُّ أنى من أهل العلم، وما أنا لَهُ بالصاحب ولا الحلم. وتلك لعمـرى بَلِيَّة، تُفتقد معها الْحَلِيَّة. والعلُومُ تفتقر إِلى مراس... ويُقالُ إِننى من أهل الدِّين، ولو ظهر مَا وراء السدَّين (بمعنى الستر والحجاب)... مَا اقتنع لى الواصفُ بـسبب... ولو أنّى لاَ أشعُرُ بِمَا يُقالُ فِيَّ، لأرحتُ من إِنكارى وتلافِيَّ، وكنتُ كالوثن: سواء عليه إِنِ وُقر من الوقار، وإِن أُوقر من الأوقار، وكالأرض السبخة: مَـا تحفـلُ أن قيل: هِيَ مريعة، أو قيل لَهَا: بئست الذريعة"!

وهنا نذكر قوله فِى اللزوميات:

ولَمَّا رأيتُ الجهلَ فِى الناس فاشيًا
تجاهلتُ حَتَّى ظُنَّ أَنِّـيَ جاهـلُ

وقوله:

أقررتُ بالجهلِ وادَّعَـى فهمـى
قومٌ فـأمرى وأمـرهم عجَـبُ

وقوله:

اللّٰه يـــشهد أنّـــى جاهـــل ورع

فليحضر الناس إقرارى وإشهادى

لكم يخشى ضياع الرسالة ثم وقوعها فِى يد من يصبر على قراءتهـــا وفـــك رموزها!

ثم نرجع إِلى قوله: "... وكيف أغتبطُ إِذا تُخُرِّصَ عَلَىَّ، وعُزِيَت المعرفةُ إِلَىَّ؟ ولست آمنا فِى العاقبة، فضيحة غير مُصاقبة، ومثلى إِن جذلتُ بذَلِكَ مثلُ من اتُّهم بمال... فسرَّهُ قول الجهلة: إِنه لحلفُ اليسار، والذهب فِى يمينه واليسار. فطلب منه بعضُ السلاطين أن يحمل إِليه جُملة وافرة (من المال)... فصادف أُكذُبـــة زافـــرة، وضربهُ كى يُقِرَّ، وقُتل فِى العقوبة و لم يُعطَ البرّ"!

إِلى هَذَا الحد يتوقع الرجل القتل ويخشاه فيما لو انكشف أمـــره أو سِـــرُّه، ويَفْرَقُ من أن تؤدِّى الأقاويل عَنْهُ -المفتراة وغير المفتراة- إِلى لفت نظر "الـــسلطة" -أية سلطة- إِليه فضلاً عن أن هَذَا يمكن أن يجتثّ كتيبته الْخَرْسَاء من جـــذورها ومنها ابْن الْقَارِحِ!

أَعَرفْنَا لِمَاذَا أوصى مريديه وبإِلحاح بأن يتعمدوا هجاءه ويتجنبوا مدحـــه، وأن يتهاجَوا فى ما بينهم بدلاً من أن يتقارضوا المدح مِمَّا سبق أن أشرنا إِليه؟!

وأزهد فِى مدح الفتى عند صدقه

فكيف قبولى كاذبـــات المـــدائح

من ثَمَّ يقول لابْن الْقَارِحِ: "... وقد شهد اللّٰه أنى أجذلُ بمن عابنى، لأنـــه صدق فى ما رابنى، وأهتمُّ لثناءٍ مكذُوبٍ... فغفر اللّٰه لِمَن ظنّ حسنًا بالمسىء"!

وهنا نذكر قوله فِى اللزوميات:

وأبعد عـــن قائـــل لاَ ســـلمت

وآخــــرَ قـــال ألا يـــا ســـلمى

ويقول إنه فهم من رسالة ابْن الْقَارِحِ أو رُبَّمَا بلغه بطريق أُخْــرَى أن ثمــة جماعة تمالئ على أمر ليس بالحسن ولا الطاعة، أى اتفقت على الخيانة. وقد احتدم غضبه وغيظه لِهَذَا حَتَّى كاد ينتحر!!: "... كدتُ ألحقُ برهط العدم، مـــن غـــير الأسف ولا الندم، ولكنما أرهب قدومى على الجبار... ولولا حكمة الله جلّـــت قدرته، وأنه حجز الرجل عن الموت، بالخوف من العلز (القلق والهلع) والفـــوت. لرغب كل من احتدم غضبه... أن تُترع لَهُ من الموت كئوس"!

مَا عساها تكون تلك الجماعة المتمالئة؟!

وعلامَ كان التمالؤ؟!

ولِمَاذَا غضب أَبُو الْعَلاَءِ إِلى هَذَا الحدِّ، حدِّ التفكير فِى الانتحار؟

لاَ نعلم، ولكن ابْن الْقَارِحِ كان يعلم حتمًا، وضمّن ذَلِكَ شفريًّا -رُبَّمَـــا- رسالته إِلى أَبِى الْعَلاَءِ، أو رُبَّمَا علم الأخير بالواقعة من طريق أُخْرَى، فكيف علم؟!

المهمُّ أن الرجل عدوُّ الخيانة، أليس هُوَ القائل فِى اللزوميات:

أحـــاذر أن تجعلـــوا مـــضجعى

إِلى كـــافرٍ خـــان أو مـــسلمِ

وفِى سقط الزند:

وَفَيتُ وقد جُزيتُ بمثـــلِ فِعْلِـــى

فها أنـــا لاَ أخـــون ولا أُخَـــانُ

ويلفت النظرَ هنا قولُه عن ابْن الْقَارِحِ: "... وأما وُروُده حلب حرسها الله، فلو كانت تَعْقِلُ، لفرحت بِهِ فرح الشمطاء المنهبلة... شحط سليلُها الواحدُ، ومـا هُوَ لِحَقِّها جاحد، وقدم بعد أعوام، فنقعت بِهِ فرط أُوام... فالحمدُ لله الَّذِى أعـاد البارق (ضوء البرق) إِلى الغمام الوسمىّ"!

وهَذَا يؤكد مدى تقدير أَبِى الْعَلاَءِ لابْن الْقَارِحِ، ومـدى إِدراكـه لمترلتـه الكبيرة، مِمَّا هُوَ برهان يضاف على أنه لَمْ يَكُن بالشخصية الهامشية أو غـير ذات البال -كما ذهب البعض- خصوصًا وأن الْمَعَرِّىّ يستطرد فِى التعبير عن احترامـه الشديد لَهُ فيقول: "... وهو -قدر الله لَهُ مَا أحب- قَد جالس ملوك مصر... وقد أقام بالعراق زمنًا طويلاً... وبالعراق مملكة فارس، وهم أهلُ الشرف والظـرف... ولا ريب أنهُ قَد جالس بقاياهمُ واختبر فِى المعاشرة سجاياهم"!

ويورد كامل كيلانى -الَّذِى لاَ يفوتنِى أن أسجّل أنه من أعظم من تفرغـوا لدراسة وتحقيق وشرح ونشر وضبط أعمال أَبِى الْعَلاَءِ مـن القـدماء والمحـدَثين والمعاصرين عامة ودون استثناء!- أقول يورد مَا قاله ابـن عبـد الـرحيم أحـد المعاصرين للمَعَرِّىّ فِى ترجمته لابْن الْقَارِحِ، وقد أخذ عَنْهُ ياقوت فِى معجمه مَـا يلى: "وموجَز القول أن ابْن الْقَارِحِ ذكىّ لاَ أكثر ولا أقلّ، ولكن ذكاءه سـطحىّ يشركه فِيهِ الكثيرون، فهو ليس مفكرًا عميقًا ولا واسع الاطّلاع، ولكنـه ثرثـار طيب القلب... ورُبَّمَا كان أوجزُ مَا يُقال فِيهِ أنه فقيه صالح للوظيفة الَّتِى مارسـها وهى تأديب أولاد الملوك، وهَذِهِ صناعة لاَ تتطلب من الذكاء أكثر مِمَّا نراه فِى ابْن الْقَارِحِ"!

هَذَا على العكس تَمَامًا مِمَّا توحى أو تؤكد أقوال أَبِى الْعَلاَءِ فِى الرجـــل، مِمَّا سلف بيانه ومِمَّا لاَ شكَّ فِيهِ. وقد سبق أن عددنا حيثيات ابْن الْقَارِحِ حَتَّـــى لقد ذهبنا إِلى أنه قَد يكون هُوَ نفسه دَاعِي الدُّعَاةِ الفاطمىّ!

فلِمَاذَا إِذن هَذَا "الهجاء" من جانب بن عبد الرحيم للرجل؟!

إِننى أحس من لهجته التحامُلِيَّة أنها لهجة متعمَّدة، وأن ابن عبد الرحيم لـــيس صادقًا مع نفسه ولا مع ابْن الْقَارِحِ ولا مع ياقوت ولا مع الآخرين! وأنه من نفس نوع الهجاء والهجوم التمويهىّ الدُّخَانِىّ التكتيكىّ الَّذِى تعمَّده يـــاقوت إِزاء أَبِـــى الْعَلاَءِ -التفاصُح والتَّشدُّق- وذَلِكَ نزولاً على تعاليم أَبِى الْعَلاَءِ نفسه وعلى تقاليد والتزامات الْكَتِيبَة الْخَرْسَاء وتجنُّبًا للأخطار المحدقة والاحتمالات المتوقَّعة، مِمَّـــا لاَ يدَع مجالا للشَّكِّ فِى أن ابن عبد الرحيم أَيْضًا كان زميلاً لابْن الْقَارِحِ وليـــاقوت تحت لواء أَبِى الْعَلاَءِ، الْكَتِيبَة الْخَرْسَاء. وإِلاَّ فلِمَاذَا اهتمَّ ابن عبد الرحيم بترجمة ابْن الْقَارِحِ؟ ولِمَاذَا سجَّل ياقوت هَذِهِ الترجمة؟! إِن هَذَا التسجيل ذاته قرينـــة علـــى التمويه والمناورة، ودلالة على الرغبة فِى التَّستُّر على أَبِى الْعَلاَءِ وعلى ابْن الْقَـــارِحِ وعلى ابن عبد الرحيم نفسه! وانساق المؤرِّخون والباحثون وراء ترجمة ابن عبـــد الرحيم وجازت عليهم جميعًا اللعبة، حَتَّى طه حسين، وحَتَّى كتابة هَذِهِ السطور!

إِن طه حسين قَد افترى على ابْن الْقَارِحِ حين وضعه مع كثيرين من "أمثاله" وضعًا مزريًا للغاية، وذَلِكَ حين قال فِى تقديمه لطبعة كيلانى من رسالة الْغُفْـــرَان: "... وأحسب -أستغفر الله- بل أثق بأن أَبَا الْعَلاَءِ إِنَّمَا أراد أن يسخر مـــن ابْـــن الْقَارِحِ وأمثال ابْن الْقَارِحِ، وأن يُلهِيهم عن نفسه ورأيه وفلـــسفته، بِمَـــا كـــانوا يتهالكون عليه من نحو وصرف وعَروض وقافية وغريب ونادرة ودين، فحشا لهـــم الرسالة حشوًا من هَذَا كله، ولكن دون هَذَا كله مَا لم يَفْقَهُ القوم و لم يفطنوا لَـــهُ.

ولو فقهوه وفطنوا لَهُ لكان لأبِى الْعَلاَءِ شأن غير شأنه ولكان لهم شأن غير شأنهم أيْضًا"!

لاَ يا دكتور طه!

فابْن الْقَارِحِ كان أعظم وأخطر من أن يسخر منه أَبُو الْعَلاَءِ! وابْن الْقَارِحِ لَمْ يَكُن بالَّذِى يَتَلَهَّى بمثل تلك الألْهيات أو يتهالك عليها فى من كانوا يتهالكون!

ثم إن الرسالة ليست محشوَّة بِهَذَا كله حشوًا عفويًّا أو عشوائيًّا أو كما اتفق، وإنَّما هِيَ محشوَّة بِهِ لِمَعَانٍ وأهداف وغايات مقصودة ومحسوبة ومدبَّرة تدبيرًا ويعرفها ويفهمها ويفقهها ابْن الْقَارِحِ بالذات جيِّدًا.

إن الكبار لاَ يقرأون -عادةً- للصِّغار! وكم أتمنَّى أن يقرأ طه حسين والعقَّاد، كما أتمنَّى أن تقرأ بنت الشاطئ ولويس عوض مَا كتبتُه حَتَّى الآن عن أبِى الْعَلاَءِ وعن ابْن الْقَارِحِ! كما أتمنَّى لو أنهم أخذوا العبرة مِمَّا أورده أَبُو الْعَلاَءِ على لسان ابْن الْقَارِحِ، حين قال لَهُ رؤبة بن العجاج متفاخرًا: "أليس رئيسُكم... كان يستشهدُ بقولى ويجعلُنى لَهُ كالإمام؟". فيردّ ابْن الْقَارِحِ قائلاً: "لاَ فخر لك أن استُشهد بكلامك، فقد وجدناهم يستشهدون بكلام أمَة وَكْعَاءَ (حمقاء)... وكم روى النحاةُ عن طفل، مَا لهُ فِى الأدب من كفل"!

فلأكُن مثل تلك الأمة الوكعاء أو مثل ذَلِكَ الطفل الَّذِى ليس لَهُ فِى الأدب! فأَبُو الْعَلاَءِ هُوَ الَّذِى يقول:

لاَ تزدرن صغارا فِى ملاعبهم
فجائز أن يروا سادات أقوام

ويقول:

لاَ تَهاون بصغير من عدىً

فقديمًا كسر الرمحَ القلم

ويقول:

رُبّ شيخ ظلّ يهديه إلى

سُبُل الحق غلامٌ مَا احتلم

الفصل السابع
الموقف العلائى من المرأة

ألحّ أَبُو الْعَلاَءِ فِي الجزء الثانى من رسالة الْغُفْرَان فِي تحذير ابْن الْقَارِحِ من النساء بالذات! كما ألح على ذَلِكَ فِي اللزوميات وفِي سقط الزند! وواضح أنه يخشى مَا قَد تتعرض لَهُ الْكَتِيبَة الْخَرْسَاء من أخطار جسيمة! وسوف نُفصل هَذَا فِي الوقت المناسب. المهمّ أنه ينتهز فرصة الكلام عن أبى القطران الأسدىّ المتيَّم بوحشية، فيقول: "... وَإِنَّمَا ودّ الغانية خلاب وخداع، وللكمد فِي هواهُ ابتداع... ولعل أبا القطران لو مُتّع بِهَذِهِ المذكورة مَا يكونُ قدرُهُ مائة حقبة، على غير الجزع والرّقْبة (الرصد)... لجاز أن يغرض من الوصال... ولعله لو صادف غانية تزيدُ على وحشيته بشق الأبلمة (ثمر شجر الدوم)... لسلاها غير المُولمة".

ولنتذكر حديثه عن شيرين المومس –على حدِّ تعبيره– وكسرى! ثم لنلاحظ أنه لاَ يقصد النساء عمومًا ولا المرأة عامّة، كما ذهب إِلى ذَلِكَ القدماء والْمُحدَثون والمعاصرون، بل هُوَ يقصد نساءً معينة هُنّ الغوانى، وامرأة معيَّنة هِيَ الغانية. والمعروف أن الأغلبية العظمى من الغوانى هن من (جنس) معيَّن، منذ بغايا المعابد وحتّى وقتنا الراهن، فِي جميع أنحاء العالَم. وحتّى رجال هَذَا (الجنس) المعروف كالغوانى تَمَامًا، كما يقول أَبُو الْعَلاَءِ نفسه فِي اللزوميات:

ورجال الأنام مثل الغوانى
غيرُ فرق التأنيث والتذكير

ومن هنا نفهم إِعجاب أَبِى الْعَلاَءِ بعلقمة بن عبدة، حين يجرى على لسان

ابْن الْقَارِحِ فِي لقائه بعلقمة (رسالة الْغُفْرَان) مَا يلي: "أعزز على بمكانك (يقصد في الجحيم)! مَا أغنى عنك سمطًا لؤلؤك (يعنى يائيته وميميته)... ولو شفعَت لأحد أبياتٌ صادقة ليس فيها ذكر الله -سبحانه- لشفعَت لك أبياتُك فِي وصف النساء، أعنى قولك:

فإن تسألونى بالنساء فإننى
بصير بأدواء النساء طبيب"

ويقول أَبُو الْعَلاَءِ:

بدءُ السعادة أن لم تُخلق امرأةٌ
فهل تودُّ جُمَادى أنها رجبُ؟

فهو يعنى امرأة بالذات، وهو لم يقل هَذَا من باب المصادفة أو من باب الضرورة الشِّعرِيَّة -الوزن- فليس أَبُو الْعَلاَءِ بالرجل الَّذِي يترك شيئًا للمصادفة، كما أنه ليس بالرجل الَّذِي ينحنى أمام الضرورة الشِّعرِيَّة.

والمعروف أن أحمد بن عبد ربه حكى فِي العقد الفريد قصة مؤدَّاها أن المأمون كان يُنصت إِلى مغنِّية فَلَحَنَتْ، فأدرك أنها ليست عَرَبِيَّة -وإن بدت كذَلِكَ- فشكٌّ فيها، ولمح ابنه -وكان حاضرًا فِي المجلس- يغمز للغانية المغنِّية بإحدى عينيه، ففهم أنه يحذِّرها أو يلفت نظرها، فأمر بسجن ابنه من باب الأدب والتهذيب! لذَلِكَ يقول أَبُو الْعَلاَءِ قاصدًا رجالاً معينين ونساءً معيَّنات:

فأُفٌّ لعصريهم نهارٍ وحندسٍ
وجنسَىْ رجالٍ منهمُ ونساءِ

وبِهَذَا وحده يمكن أن نفهم التناقُض -الظاهرىّ- فِى أقوال أَبِى الْعَلاَءِ عـــن المرأة، وذَلِكَ بأن نتحقق مِمَّا إذا كان يقصد المرأة على إطلاق، أم يقــصد امــرأة خاصَّة من جنس خاصٍّ! ولَمَّا كان التمييز بين نساء هَذَا الجنس وأى جنس آخر من أصعب الأمور وجب الحذر من النساء عامَّة التماسًا للأمن والسلامة.

فلنقفز إِلى رسالة الْغُفْرَان لنجده يرمز إِلى نساء هَذَا الجنس بنساء "حلب" فِى قوله: "ورُبَّمَا كان فِى نساء حلب -حرسها الله- شواعرُ، فلا يأمن من أن تكــون هَذِه منهن، فطالَمَا كُن أجودَ غرائزَ من رجالهن (أى أكثر مقدرة ومهــارة ومكــرًا وخبثًا)"!

وَلاَ بُدّ هنا من أن نستطرد مع أَبِى الْعَلاَءِ: "وحدّث رجل ضرير من أهــل آمد (أعظم مدن ديار بكر فِى شمال الجزيرة ودجلة محيطة بأكثرها) يحفظ القــرآن ويأنس بأشياء من العلم، أنه كان وهو شابٌّ لَهُ امرأة مُقينة (ماشطة) تزيّن النــساء فِى الأعراس، وكان يُنجّمُ على الطريق، وكانت لَهُ قُرعة (جراب) فيهــا أشــعار كنحو مَا يكون فِى القُرَع، وكان يعتمد حفظ تلك الأشعار ويدرسُها فِى بيته، ولا غريزة لَهُ فِى معرفة الأوزان، فيكسر البيت. فتقول لَهُ امرأته الماشطة: وَيْلِى، مَا هَذَا جيد. فيُلاجُّها (يخاصمها) ويزعم أنها مخطئة. فإذا أصبح مضى فسأل من يعــرفُ ذَلِكَ، فأخبره أن الصواب معها".

وهنا نتذكر قوله فِى رسالة الْغُفْرَان -الجزء الأول- على لسان زفر خــازن النار لابْن الْقَارِحِ، وهو يحاول أن يرشوه بالشعر: "لاَ أشعر بالَّــذى حممــت -أى قصدت- وأحسب هَذَا الَّذى تجيئنى بِهِ قرآن إبليس المارد، ولا ينفُقُ على الملائكة، إِنَّمَا هُوَ للجانّ وعلّموه ولد آدم...".

وهنا أَيْضًا لاَ يقصد الشعر على إِطلاقه، وَإِنَّمَا يقصد الـــشعر المنحـــول! ثم لِنُنْعِم النظر فِى قول زفر: "... ومن تلك الجهة (أى إِقليم العرب) أتيتنى بالقريض، لأن إِبليس اللعين نفثه فِى إِقليم العرب، فتعلمهُ نساء ورجال. وقد وجـــب عَلَـــىَّ نُصحُك...".

إِذن فهو لَمْ يَكُن يقصد النساء عامَّة والرجال عامَّة، بل يقصد رجالاً ونساءً من جنس معيَّن، رجاله ونساؤه على السواء محض غوانٍ! على حدِّ تعبيره، وكـــل الفرق فِى التأنيث والتَّذكير. إِذن يصبح من الواضح جدًّا قوله فِى اللزوميَّات:

أرى الحيَّ جنسًا ظلَّ يشملُ عالمى
بأنواعه لاَ بُورِكَ النَّوعُ والجِـــنسُ

وقوله:

كونى الثريا أو حـــضار أو الــــــ
ـــجوزاء أو كالـــشمس لاَ تلـــد
فلتلـــك أشـــرف مـــن مؤنَّثـــة
نجلـــت فـــضاق بنـــسلها البلـــد

أما لِمَاذَا قال "مؤنثة" و لم يقل "أنثى" فليس أَيْضًا من قبيل المصادفة ولا مـــن قبيل الخضوع أمام الضرورة الشِّعرِيَّة، وَإِنَّمَا يعنى بِهِ أَبُو الْعَلاَءِ شـــيئًا فِـــى غايـــة الخطورة. ولكن حسبنا هنا أن نشير إِلى قوله فِى اللزوميَّات أَيْضًا:

يلـــدن أعاديـــا ويكـــن عـارا
إِذا أمـــسين فِـــى المتهـــضمات

وقوله:

إذا شئت يومًـــا وصـــلةً بقرينـــةٍ

فخير نـــساء العـــالمين عقيمهـــا

ولِمَاذَا قال:

ألاَ تَفَكَّرْتَ قبلَ النَّسل فِي زمـــنٍ

بِهِ حللت فتـــدرى أيـــن تلقيـــه

وألوف السطور النَّثريَّة والأبيات الشِّعريَّة فِي كل أعمال أَبِي الْعَلاَءِ تُلِحُّ على موضوع "المرأة" عامَّة ونوع "امرأة" خاصَّة! وكل مَا كتبـــه القـــدماء والمحـــدّثون والمعاصرون بلا استثناء عن موقف أَبِي الْعَلاَءِ من المرأة ومن النسل باطل الأباطيل، لأنه لاَ يدرك سرّ التناقض -الظاهرى- فِي أقواله، ولا لمن يتحدث ولا عمَّـــن ولا من أجل مَاذَا! لم يفهموا منهج الديالكتيك العلائى، ومن ثم تَخبَّطوا طويلاً وظنـــوا بالرجل التخبُّط! على أننا سنعالج هَذَا تفصيلاً فِي مكان آخر من هَذَا الدليل، فنحن الآن بصدد الجزء الثانى من رسالة الْغُفْرَان! وقبل أن أستأنف مَا انقطع من حـــديث أرجو القارئ أن يراجع -على هَذَا الضوء- أقوال الجنى أبى هدرش فِي الجزء الأول من الرسالة وكيف يتخذ من المرأة بالذات مطيَّته وأداته فِي كل أعماله الجهنَّميَّـــة الخبيثة! وذَلِكَ فِي سينيته:

وأســـلُكُ الغـــادة محجُوبـــة

فِي الخدر، أو بين جوار تَمـــيس

لاَ انتهى عـــن غرضـــى بـــالرُّقى

إِذا انتهى الضيغُم دون الفـــريس

....

إلى قوله:

تحملنا في الجُنح خيل لَهَا
أجنحة، ليست كخيل الأنيس
وأينق تسبقُ أبصارك-م
مخلوقة بين نعام وعيس
.........................إلخ

مَا علينا، فالمهمُّ أن أبَا الْعَلاَءِ يأخذ بعد ذَلِكَ فِي الحديث عن مدَّعي النُّبُوَّة، ومدَّعي النُّبُوَّة والمتألهين، وهم نفس الشَّيْء فِي الظاهر، ولكن فِي الباطن نجد أنه يفرق بينهما. فالأولون هم الكُفَّار فعلاً -ومن جنس معيَّن- والآخرون هم الموحِّدون، لأن التألُّه -التوحيد- غريزة فِي الطفل كما قال وقلنا فِي غير هَذَا المكان! إذن علينا أن نتحقق جيِّدًا مَا إِذا كان يقصد -فِي كل مرَّة- التألُّه بمعنى ادِّعَاء الأُلوهيَّة أو بمعنى التوحيد، وإلا فلن نفهم شيئا كما لم يفهم أحد شيئًا من موقفه من المرأة ومن النَّسل! بل ومن الشعر والشعراء، فهو حين يقول فِي اللزوميات:

وإن شرارها شعراؤها

إِنَّمَا يقصد شعرًا معيَّنًا وشعراء معيَّنين لاَ الشعر والشعراء على إطلاق! وهو أَبُو الْعَلاَءِ الَّذِي يقول لابْن الْقَارِحِ عن القُطْربلي المتَّهَم بادِّعاء النُّبُوَّة: "وحُدِّثْتُ أنه -القطربلي- كان إذا سُئل عن حقيقة هَذَا اللقب -ادِّعَاء النُّبُوَّة- قال: هُوَ من النُّبُوَّة، أي المرتفع من الأرض. وكان قَد طمع فِي شيء قَد طمع فِيهِ من هُوَ دُونه،

وَإِنَّمَا هِيَ مقادير، يُديرُها فِي العُلو مُدير، يظفرُ بِهَا من دُفق... وقد دلت أشياءُ فِي ديوانه أنه كان مُتَأَلِّهًا، ومثل غيره من الناس مُتدلِّهًا، فمن ذَلِكَ قوله:

ولا قـــابلاً إلاّ لخالقـــه حُكمـــا

إذن فالقطربلى الَّذِى اتُّهِم بالنُّبوَّة كان مُتَأَلِّهًا، أيعـــنى أنـــه كـــان يـــدَّعى الإِلوهية؟! لاَ، فأقوال الرجل تشهد بأنه يدين للخالق ويمتثل لحكمه، وعلى يقـــين من قدرته على إخزاء الكافرين! كان إِذن مُتَأَلِّهًا بـــالمعنى المعجمـــيّ الآخـــر، أى موحِّدًا. وهنا نفهم قول أَبِى الْعَلاَءِ فِى اللزوميات:

وأرحـــل عَنْهَـــا خائفًـــا أتألّـــهُ

ثم يستطرد أَبُو الْعَلاَءِ: "وإِذا رُجع إِلى الحقائق، فنُطقُ اللسان لاَ يُنبـــئ عـــن اعتقاد الإِنْسَان، لأن العالَم مجبول على الكذب والنفاق. ويُحتملُ أن يُظهِر الرجل بالقول تديُّنًا، وَإِنَّمَا يجعل ذَلِكَ تزيُّنًا، يُريدُ أن يصل بِهِ إِلى ثناءٍ أو غرض من أغراض الخالبة أُمِّ الفناء. ولعله قَد ذهب جماعة هم فِى الظاهر مُتعبـــدون، وفى مـــا بَطَـــنَ مُلحدون"!

فنتذكر قوله فِى اللزوميات:

مذاهبٌ جعلوها مـــن معايـــشهم
من يُعمِلِ الفكر فيها تُعْطِهِ الأرقـــا

وقوله:

إذا كشفت عن الرهبان حـــالهمُ
فكلهم يتـــوخى التـــبر والورقـــا

مَاذَا كان فِي وسع أبِي الْعَلاَءِ أن يفعل أكثر مِمَّا قال فِي عــصره، عــصر السبت؟!

ومع ذَلِكَ ظلّ القدماء والُمحدَثون والمعاصرون يتّهمون الرجــل -افتــراءً- بالكفر والزندقة والإلحاد ورُبَّمَا الوثنية!

ثبت بالأعمال والمؤلفات

الأعمال المَسْرَحيَّة:

- "**شجرة الزيتون**": "تابلوه غنائي"... قُدمت عام ١٩٥٨، من إخراج الشاعر نفسه.
- "**ياسين وبهيّة**": (رواية شعريّة)... كُتبت عام ١٩٦٤، مسرحها وأخرجها الرَّاحِل كرم مطاوع على مسرح الجيب، فِي موسم ١٩٦٤/١٩٦٥. ونُشرت فِي سلسلة "مسرحيَّتِي" عام ١٩٦٥. (وهي تُشكل الجزء الأول من "ثلاثية" نَجيب سُرُور، الَّتِي تضم أَيْضًا: "آه يا ليل يا قمر" و"قولوا لعين الشمس"). كذَلِكَ نشرت الهيئة المصرية الْعَامَّة للكتاب الثلاثية ضمن الأعمال الكاملة لنَجيب سُرُور- الجزء الأول عام ١٩٩٣.
- "**آه يا ليل يا قمر**": (مَسْرَحِيَّة شعرية)... كُتبت عام ١٩٦٦، وقُدمت بإخراج جلال الشرقاوى على مسرح محمد فريد عام ١٩٦٧. وصدرت فِي منشورات دار الكاتب الْعَرَبِيّ عام ١٩٦٨.
- "**يا بهيّة وخبّريني**": (كوميديا نقدية). كُتبت عام ١٩٦٧، وتضمنت نقدًا لتصوُّر جلال الشرقاوى عن مَسْرَحِيَّة "آه يا ليل يا قمر". قُدمت فِي العام نفسه على مسرح الجيب بإخراج كرم مطاوع. ونُشر نصُّها ضمن كتاب سُرُور "حوار فِي المسرح" الصادر عن "دار الأنجلو المصرية" عام ١٩٦٩. كذَلِكَ أعادت الهيئة المصرية الْعَامَّة للكتاب نشْر المَسْرَحِيَّة ضمن الأعمال الكاملة لنَجيب سُرُور - الجزء الأول عام ١٩٩٣.

- "**آلو يا مصر**": (مَسْرَحِيَّة نثرية). كُتبت عام ١٩٦٨. ونُشرت – بتصرُّف– ضمن سلسلة "نصوص مَسْرَحِيَّة" الصادرة عن الهيئة الْعَامَّة لقصور الثقافة، العدد ٤٠، عام ٢٠٠٣.
- "**ميرامار**": (دراما اجتماعية سياسية). اقتبسها سُرُور عن رواية نجيب محفوظ، وأخرجها بنفسه عام ١٩٦٨.
- "**الكلمات المتقاطعة**": (كوميديا نقدية). كُتبت عام ١٩٦٩. حوَّلها المخرج جلال الشرقاوى إلى عمل تليفزيونى فِى العام نفسه، كما قدَّم المخرج شاكر عبد اللطيف الجزء الأول منْهَا عام ١٩٧٩. نُشر النَّصّ الكامل للمَسْرَحِيَّة فِى يوليو ١٩٩٦ بواسطة الهيئة الْعَامَّة لقصور الثقافة، ضمن سلسلة "أصوات أَدَبِّيَّة"، العدد رقم ١٦٨، تحقيق ودراسة الأستاذ محمد السيد عيد.
- "**الحكم قبل المداولة**": (مَسْرَحِيَّة نثرية). كُتبت عام ١٩٦٩. أُجيزت للعرض عام ١٩٧٠. نُشرت ضمن الأعمال الكاملة لنَجيب سُرُور – الجزء الثانى، عام ١٩٩٤.
- "**البيرق الأبيض**": (كوميديا فِى ثلاثة فصول). كُتبت عام ١٩٦٩، ولم تُنشر.
- "**ملك الشحاتين**": "كوميديا غنائية". مقتبَسة عن أوبرا برتولد بريخت "البنسات الثلاثة" وأوبرا جون جاى "الشحّاذ". كتبها عام ١٩٧٠، وقُدِّمت بإخراج جلال الشرقاوى عام ١٩٧١. نُشرت ضمن الأعمال الكاملة لنَجيب سُرُور – الجزء الثانى، عام ١٩٩٤.

- "**الذباب الأزرق**": (كوميديا سوداء). كُتبت عام ١٩٧١، عقب مذابح أيلول الأسود. أخرجها بنفسه لفرع منظمة التحرير الفلسطينية في القاهرة، ومنعت الرقابه عرضها. نُشرت ضمن الأعمال الكاملة لنَجيب سُرُور – الجزء الثانى، عام ١٩٩٤.
- "**قولوا لعين الشمس**": (مَسْرَحِيَّة شعرية). كُتبت عام ١٩٧٢. قُدِّمت بإخراج توفيق عبد اللطيف عام ١٩٧٣. صدرت فِى "منشورات مكتبة مدبولى" القاهرة عام ١٩٧٩. نُشرت ضمن الأعمال الكاملة لنَجيب سُرُور – الجزء الأول، عام ١٩٩٣.
- "**منين أجيب ناس**": (مَسْرَحِيَّة شعرية). كُتبت عام ١٩٧٤، وقُدمت فِى العام نفسه. صدرت عن "دار الثقافة الجديدة" القاهرة عام ١٩٧٦. كما أُعيد نشرها ضمن الأعمال الكاملة لنَجيب سُرُور – الجزء الثانى، عام ١٩٩٤.
- "**النجمة أم ديل**": (مَسْرَحِيَّة نثرية). كُتبت عام ١٩٧٤. نَسيَت أرملة الكاتب السيدة ساشا كورساكوفا وولده شهدى مَخْطُوطَة المَسْرَحِيَّة المُعَدَّة للنَّشْر فِى سيارة تاكسى بالقاهرة، بينما كان نَجيب سُرُور فِى الإسكندرية آنذاك. والمسوَّدة الأصلية للمَسْرَحِيَّة مفقودة هِىَ الأُخْرَى. لم تُنشر.
- "**بابات قمر الدين محمد بن حنتيال فِى خيال الظلّ وظلّ الخيال!**": نُشرت بمجلة "المسرح". وأُعيد نشرها -بتصرف- بعنوان "**خيال الظلّ**"... بمجلة "مسرحنا" الصادرة عن الهيئة الْعَامَّة لقصور الثقافة، يوليو ٢٠٠٧.

- **"كان، ياما كان!!"**: (مهزلة فِي ثلاثة فصول). لم تُنشر.
- **"قطر الندى، زرقاء اليمامة"**: (فكرتان مسرحيتان) أضاع المؤلف مَخطُوطهما.

المسرحيات الّتي أخرجها:

- **شجرة الزيتون**: (من تأليفه). تابلوه غنائيّ، أخرجه ضمن برنامج "المسرح الشعبى"... فِي إطار مهرجان مسرحيّ أُقيم فِي حديقة الأزبكية عام ١٩٥٨.
- **صلاح الدين الأيوبي**: (تأليف: محمود شعبان). أخرجها ضمن برنامج "المسرح الشعبى"... فِي إطار مهرجان مسرحيّ أُقيم فِي حديقة الأزبكية عام ١٩٥٨.
- **حب الأم**: (تأليف أنور المشرى). أخرجها ضمن برنامج "المسرح الشعبى"... فِي اطار مهرجان مسرحيّ أُقيم فِي حديقة الأزبكية عام ١٩٥٨.
- **بستان الكرز**: (تأليف: أنطون تشيخوف - ترجمها نَجيب سُرُور). أخرجها لمسرح الجيب فِي موسم ١٩٦٤/١٩٦٥، وصدرت فِي سلسلة "مسرحيات عالَمِيَّة" عام ١٩٦٨، العدد ٥٦.
- **وابور الطحين**: (تأليف نعمان عاشور). أخرجها لمسرح الحكيم فِي بداية موسم ١٩٦٥/١٩٦٦.
- **الراجل اللى ضحك على الأبالسة**: (تأليف: على سالم). أخرجها لمسرح الحكيم.
- **"أ-ب"**: (تأليف ناظم حكمت - ترجمها نَجيب سُرُور بالاشتراك مع

ماهر عسل). أخرجها لمسرح الجيب فِي فبراير عام ١٩٦٧.

- "**حدث فِي أركوتسك**": (تأليف: أربوزوف - ترجمها عدلى كامل). أخرجها لمسرح الجيب.
- المصيدة: (عرض تجريبيّ مُقتبس من مشهد الممثلين فِي مَسْرَحِيَّة "هَمْلِتْ" لشكسبير، عن ترجمة لعبد القادر القط). أخرجه نَجيب سُرُور لعدد من تلامذته، وقدّمه فِي قاعة صغيرة بنادى القاهرة الثقافي (الأتيليه) ١٩٧٥.

فِي التمثيل:

لعب نَجيب سُرُور أدوارًا مختلفة فِي العديد من المسرحيّات، مِنْهَا: دور صلاح الدين الأيوبى فِي مَسْرَحِيَّة "صلاح الدين الأيوبى" على مسرح الأزبكية عام ١٩٥٨ - دور أجاممنون فِي مَسْرَحِيَّة "أجاممنون" للشاعر الإغريقى إيسخيلوس على مسرح الجيب عام ١٩٦٦ - دور جندى فلاح فِي مَسْرَحِيَّة "الجيل الطالع" على مسرح الطليعة عام ١٩٧٢ - دور السكير فِي مَسْرَحِيَّة "أوكازيون" عام ١٩٧٧، وقام بأدوار عديدة فِي برامج الإذاعة والتلفزيون، كما شارك بدور مهمّ فِي الفيلم المصرى "الحلوة عزيزة" مع هند رستم وشكرى سرحان.

مجموعات شعرية:

- "**التراجيديا الإنسانية**": مجموعة كتبها خلال الفترة ١٩٥٢-١٩٥٩. صدرت عن "المؤسسة المصرية الْعَامَّة للتأليف والنشر" القاهرة ١٩٦٧. وأُعيد نشرها ضمن الأعمال الكاملة - الجزء الثالث ١٩٩٦.

- "**... إنه الإنسَانُ!**": مجموعة كتبها فِي موسكو خلال الفترة ١٩٥٩-١٩٦٢، والواضح أنه كتبها قبل تخلّيه عن اعتناق الإيديولوجيَّة الشيوعيَّة. لم تُنشر.
- "**رسائل شعرية إلى صلاح عبد الصبور**": كتبها خلال فترة إقامته فِي موسكو ١٩٥٩-١٩٦٣. مفقودة، و لم تُنشر.
- "**لزوم مَا يلزم**": مجموعة كتبها عام ١٩٦٤. صدرت عن "دار الشعب" القاهرة ١٩٧٥. وأُعيد نشرها ضمن الأعمال الكاملة - الجزء الثالث ١٩٩٦. وأعادت دار الشروق نشرها للمرة الثالثة عام ٢٠٠٦.
- "**الأُمَّـيَّات**": "رباعيات وقصائد هجائية". كتبها فِي أواخر ستينيات القرن الماضى، وأكد نجيب أن الرئيس الرَّاحِل جمال عبد الناصر قرأها شخصيًّا. ولقد حُكم على ابنه شهدى بالسجن لقيامه بنشر تلك الأُمَّـيَّات على شبكة الإنترنت.
- "**بروتوكولات حكماء ريش!**": "أشعار ومشاهد مَسْرَحيَّة". صدرت عن مكتبة مدبولى، القاهرة ١٩٧٨. وأُعيد نشرها ضمن الأعمال الكاملة - الجزء الثالث ١٩٩٦. وأعادت دار الشروق نشرها للمرة الثالثة عام ٢٠٠٦.
- "**رباعيات نَجِيب سُرُور**": كتبها فِي ١٩٧٤-١٩٧٥. صدرت عن مكتبة مدبولى، القاهرة ١٩٧٨. وأُعيد نشرها ضمن الأعمال الكاملة - الجزء الرابع ١٩٩٧.
- "**الطوفان الثانى**": كتبها فِي ١٩٧٧-١٩٧٨. ونُشرت ضمن الأعمال الكاملة - الجزء الرابع ١٩٩٧.

- "**فارس آخر زمن**": كتبها فِي ١٩٧٧-١٩٧٨. ونُشرت ضمن الأعمال الكاملة - الجزء الرابع ١٩٩٧.

كتابات نقدية:

- "**تخطيطات، فِي المسرح المصرى**": دراسة طويلة ومهمَّة، ولكنها حادَّة اللهجة ومتطرفة فِي أحكامها، نشر نَجيب سُرُور ملخَّصات عَنْهَا فِي مجلة "الآداب" اللبنانية فِي كانون الثاني/يناير عام ١٩٥٧.
- "**رسائل حول قضايا المسرح**": خطابات تبادلها سُرُور، عندما كان يدرس فِي موسكو، مع صديقه المخرج والممثّل كرم مطاوع عندما كان يدرس فِي روما. مفقودة، و لم تُنشر.
- "**رحلة، فِي ثلاثية نجيب محفوظ**": دراسة نقدية طويلة نشر فصولاً مِنْهَا فِي مجلة "الثقافة الوطنية" اللبنانية عام ١٩٥٩. وأنجز فصولاً أُخرَى مِنْهَا حتَّى عام ١٩٦٣. ثم جُمعت، وقام بتحقيقها وتقديمها الأستاذ محمد دكروب. وصدرت فِي سلسلة "الكتاب الجديد"... دار الفكر الجديد، بيروت ١٩٨٩. وستُعيد "دار الشروق" نشرها قريبًا دون مقدمة الأستاذ محمد دكروب.
- "**حوار فِي المسرح**": (مقالات نقدية). صدرت عن دار الأنجلو، القاهرة ١٩٦٩.
- "**هموم فِي الأدب والفن**": (مقالات نقدية)... جمعها الكاتب ونسّقها قُبَيل وفاته، وصدرت عن "دار المريخ لِلنَّشْر".
- "**تحت عباءة أَبِي الْعَلَاءِ**": دراسة نقدية طويلة كتبها فِي الأعوام منذ

١٩٧٣ وحَتَّى وفاته، نشر فصولاً مِنْهَا فِي مجلاَّت مختلفة. قام بتحقيقها وتقديمها د. حازم خيرى، وسُلمت المَخْطُوطة المُعَدّة لِلنَّشْر لأرملة الرَّاحِل السيدة ساشا كورساكوفا فِي القاهرة بتاريخ ١٥/١١/٢٠٠٧.

- **"هكذا قال جحا"**: (مقالات هجائيَّة ساخرة حول الحياة الثقافية فِي القاهرة)، كتبها عام ١٩٧٨. صدرت عن "دار الثقافة الجديدة"، القاهرة ١٩٨١.
- **"سيمون دى بوفوار ومَسْرَحِيَّة الأفواه اللامُجْدِيَة"**: (دراسة نقدية)... لم تُنشر.
- **"الشعر الْعَرَبِيّ الحديث"**: دراسة نقدية عن بعض الشعراء العرب المحدثين، أمثال محمد عفيفِى مطر وأدونيس. نشر فصولاً مِنْهَا فِي مجلة الكاتب القاهرية. لم تُجمع ولم تُنشر مكتملة.

رواية وأعمال أُخْرَى:

- **"فارس آخر زمنا"**: (رواية تجسِّد السيرة الذاتية لنَجِيب سُرُور)... كتبها نَجِيب سُرُور قبل رحيله، وحال رحيله دون اكتمالها، ولم تُنشر.
- **لَهُ مقالات وقصائد أُخْرَى** كثيرة لم يجمعها وهى منشورة فِي العديد من الصحف والمجلات العَرَبِيَّة، مِنْهَا: "الثقافة"، "المجلة"، "الكاتب"، "الطليعة"، "الشعر"، فِي مصر. ومجلات: "الآداب"، "الثقافة الوطنية"، "الأخبار"، "الطريق" فِي لبنان. ومجلة "الثقافة" العراقية، و"الدوحة"، "الموقف الْعَرَبِيّ". وغيرها.

الْمُرَاجَعَةُ اللُّغَوِيَّة وَالإِشْرَافُ الْفَنِّيُّ:
مَحْمُود عَبْدِ الرَّازِقِ جُمْعَة

المجلس الأعلى للثقافة

هذا الكتاب القيِّم الجميل نثر ثقافى رائع ودراسة جديدة من نوعها فى النقد الأدبى والفكرى العربى نتمنى أن تتبوَّأ هى وصاحبها المكانة اللائقة بها فى الذاكرة العربية وكذا المكتبة العربية. على أمل أن يتسنَّى لكاتب هذه السطور فى المستقبل القريب وضع دراسة يخصصها لتحليل النزعة الإنسانية "الأَنْسَنِيَّة" عند نجيب سرور فى إطار سعيه الدءوب لإرساء دعائم تيار ثقافى أنسنى فى هذه المنطقة المضطربة والمليئة بالصراعات والهموم.